نبـــذة عن حـــالة العـــالم قبـــل الإســـلام

كانت شبه الجزيرة العربية محصورة بين دولتين كبيرتين هما دولة الفرس ودولة الروم . وكانت هاتان الدولتان تتحكمان في العالم في ذلك العصر الجاهلي وكانتا على جانب كبير من الرقي والمدنية ولكن فيهما فساد كبير من الناحيتين الدينية والاجتماعية.

فبلاد الفرس كانت تنتشر فيها المجوسية وهي عبادة النار، وهم يقولون : إن الذي يتحكم في العالم إلهان : إله الخير وإله الشر، وقد انقسموا إلى مذاهب مختلفة ولكل مذهب أنصار يعادون ويناوئون أنصار المذهب الآخر.

وبلاد الروم كانت تنتشر فيها المسيحية وقد انقسم المسيحيون إلى طوائف وكل طائفة تناهض الأخرى وتعاديها ، فكان منهم من يقول : إن عيسى ليس له جسد ولكنه طيف يتبدى للناس ، ومنهم من يقول : إن فيه ناحيتين : ناحية إلهية وناحية إنسانية ، ومنهم من كان يعبد مريم ، وقد سبب هذا الخلاف الديني بلاء كبيرا وشرا مستطيرا.

وأما من الناحية الاجتماعية فقد كان الناس في بلاد الفرس والروم طبقتين ، أولاهما : طبقة الحكام والرؤساء وهم عدد قليل ضئيل ، وثانيتهما : طبقة المحكومين المرءوسين وهم الغالبية العظمى والكثرة الساحقة ، وكانت الأغلبية المحكومة تقاسى الجور والظلم من الأقلية الحاكمة ، إذ كانوا يرهقون بالضرائب الفادحة ، ويعاملون معاملة العبيد ، أو بعبارة أخرى كانوا يزرعون ويكدحون والرؤساء والحكام يحصدون ويتمتعون ، وكانت نتيجة ذلك أن تطلع الشعب فى بلاد الفرس والروم إلى الخلاص من هذا الظلم والطغيان وإلى تحقيق الحرية والإخاء والمساواة .

وقد كانت الحرب بين الفرس والروم سجالا ، فأحيانا ينتصر الفرس وينتزعون جزءا من أملاك الروم . وأحيانا ينتصر الروم فينتزعون جزءا من أملاك الفرس وقد كانت آخر تلك الحروب هى التى أشار الله إليها فى قولـــه تعالى : " الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ

ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾". سورة الروم

وقد صدق الله وعده بعد ذلك بنصر المؤمنين ، فانتصر الإسلام وانتشر فى بلاد الفرس والروم ، وعم نوره العالمين .

العرب قبل الإسلام ــ حالتهم الاجتماعية والدينية

وصف بلاد العرب :

تقع بلاد العرب فى الجنوب الغربى من قارة آسيا ويحدها من الشمال فلسطين وبادية الشام ، ومن الجنوب المحيط الهندى وخليج عدن ، ومن الشرق الخليج العربى وبلاد العراق ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومساحتها تبلغ مليونا وسبعمائة ألف كيلو متر مربع . وهذه البلاد الواسعة المساحة المترامية الأطراف يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، وهى : الشرق والجنوب والغرب ، ولذلك سميت شبه الجزيرة العربية وهى بلاد صحراوية مجدبة فى أغلب أجزائها ، ليس بها من الأماكن الخصبة إلا بلاد اليمن ، وبعض الوديان الواقعة فى نجد والحجاز وهى وديان قليلة لا تسد حاجة السكان . وقد وجدت قديما فى بلاد اليمن بعض الممالك مثل مملكة "سبأ" ومملكة " حمير " ولكن النظام القبلى كان سائدا الأرجاء من شبه الجزيرة العربية .

من هم العرب ؟

العرب أمة سامية ترجع فى نسبها الأول إلى " سام بن نوح " – عليه السلام – وقد سموا عربا لأنهم لم يزالوا معروفين بين الأمم بالإعراب وهو البيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق [1] ، وقيل سموا عربا بالنسبة إلى يعرب بن قحطان جد العرب العاربة فإنه أول من نطق باللغة الفصحى وأخذها عنه أهل اليمن . وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام :

١- عرب بائدة .

٢- عرب عاربة .

٣- عرب مستعربة .

---

[1] يقال : أعرب إذا أفصح فى منطقه ، فهم عرب لفصاحتهم فى النطق .

فالعرب البائدة : هم الذين بادوا أى محيت آثارهم و لم يصلنا من أخبارهم إلا النـــزر اليســـير ، ومنهم عاد وثمود ، وقد ذكرت قصتهم فى القرآن الكريم ولكنها مجملة ليس فيها تفصيل شامل .

والعرب العاربة : وهم الذين جاءوا على أثر العرب البائدة ويرجعون فى نسبهم إلى يعرب بـــن قحطان ، وينتمون إلى سام بن نوح عليه السلام .

وأما العرب المستعربة : فيرجعون فى نسبهم إلى إسماعيل عليه السلام ، وهم عرب مـــن جهـــة الأمهات لا من جهة الأباء ، لأن أباهم إسماعيل غير عربى ولكنه تزوج من قبيلة جرهم العربيـــة فسمى أبناؤه عربا مستعربة ، وقد نشأوا فى مكة ومنها انتقلوا إلى شبه الجزيرة العربية.

حالتهم الاجتماعية والدينية :

١ – الحالة الاجتماعية :

الحالة الاجتماعية هى حالة المجتمع من ناحية العلاقات القائمة بين أفـــراده . وســـنذكر تلـــك العلاقات وبخاصة علاقة الرجل بالمرأة ، لأن الرجال فى الأمة شطرها ، والنساء شطرها الآخر ، ولأن الرجل والمرأة أساس الأسرة وأساس الأمم والشعوب . ولقد كانت العلاقة بين الرجـــل والمرأة فى الجاهلية علاقة محبة واحترام إلى حد كبير ، فالرجل كان يحب المرأة ويحترمها ، وذلك أنه يتحدث عنها باهتمام فى أشعاره وخطبه ويذكرها دائما بما يدل على التعظيم والإجـــلال ، فكان يقول لها : يا أم فلان بدل أن يذكرها باسمها تكريما لها وصونا لكرامتها وكان يسميها ربة البيت أى صاحبة البيت ، وكان يستشير ابنته إذا أراد أن يزوجها فلا يرغمها على الزواج بمـــن تكره بل ينفذ رغبتها كما تحب وتريد .

ومن ذلك ما كان من أوس بن حارثة الطائى فلقد جاءه الحارث بن عوف المرى خاطبا إحدى بناته فاستشار الصغرى فرضيت فزوجها . وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد زواج بعد رضـــائها ورضاء أوليائها وبعد أن يتفقوا على مهر معين ، وكانوا يعددون الزوجات ، و لم يكـــن حـــد معروف لعددهن ، وكانوا يُطَلِّقون ، وإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته يقول لها : الحقى بأهلك ، أو ما يماثل ذلك ، وفى بعض الأحيان يكون للمرأة الحق فى أن تطلق نفسها ، وطلاق المـــرأة كان يعرف بأنـــها تحول باب بيتها المصنوع من الشعـــر أو الوبـــــر أو الجلـــــد إلى

عـــكس جهتها الأصلية ، ولكن الغالبية من العرب كانت تجعل حق الطلاق للرجل .

وكانت توجد بين العرب عادة " وأد البنات [1] " ولكنها لم تكن منتشرة إلا فى القبائل الوضيعة ، وكانوا يفعلون ذلك خشية الفقر أو العار .

وفى هذا يقول الله تعـــالى : " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩ " . سورة النحل .

ويقـــول تعـــالى : " وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا ۝٣١ " . سورة الإسراء . " أى خشية وخوف الفاقة والفقر" .

ويقول تعالى : " وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ " . سورة التكوير .

وكان بعض العقلاء من العرب لا يرتضى هذا العمل القبيح وهو وأد البنات فكـــان يجـــىء إلى الرجل الذى يريد قتل ابنته ويقول له : لا تقتلها أنا أكفيك مئونتها . وكان صعصـــعة "جـــد الفرزدق " يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأنقذ عددا كبيرا منهن فى أيام الجاهلية. أما علاقة الرجل بأبنائه فكانت علاقة محبة . وهذا أمر طبيعى بين الأب وأبنائـــه إلا أن العـــربى بصفة خاصة كان يعتز بأبنائه الذكور " لأنـــهم القوة التى تشد أزره ، وتجعل الغير يخشـــاه ولا يستهين به " .

وعلاقة الرجل بأخوته كانت علاقة تضامن وتعاون . إذ كان الأخ يتضامن مع أخيه ولو كـــان على الباطل فكانوا يقولون : " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " . بمعنى كن مع أخيك ولو كـــان ظالما وساعده ضد الغير ولو كان الغير مظلوما . وأما علاقة القبيلة بالقبيلة الأخرى فقد كانت فى الغالب علاقة كراهية وعداوة شديدة ، إذ كانت كل قبيلة تحب أن تتميز عن غيرها . وتريد أن تكون أكثر مالا وأعظم جاها وسلطانا من القبائل الأخرى وقد أدى ذلك إلى قيام المنازعـــات

---

[1] كان الرجل فى الجاهلية يئد ابنته حية ويهيل عليها التراب حتى تموت خشية العار أو الإمـــلاق فجـــاء الإسلام بتحريم ذلك تحريما قاطعا .

والمشاحنات بينهم فكانت حياتهم كلها فى حرب وقتال . وبذلك يتضح لنا أن العلاقة بين أفراد القبيلة الواحدة كانت علاقة تضامن وتعاون ، أما العلاقة بين كل قبيلة وأخرى فكانت علاقة عداوة وخصام وذلك مما جعل الأمة العربية مفككة الأوصال ، مهددة بالفناء والزوال ، لولا أن تداركها الله سبحانه وتعالى بالإسلام .

علوم العرب ومعارفهم :

إذا نظرنا إلى العرب فى العصر الجاهلى فإننا نجد التعليم فيهم يكاد يكون معدوما ، و لم يكن يعرف القراءة والكتابة منهم إلا عدد قليل ، إلى درجة أننا نستطيع أن نقول عنهم : أنهم قوم أميون . إلا أنهم كانوا يعرفون الأشياء التى يحتاجون إليها فى بيئتهم الصحراوية ولهم فى ذلك علوم خاصة بهم . فكانت لهم تجارب خاصة بالإبل عرفوا منها ما يطرأ عليها من أمراض كما عرفوا العلاج الناجع لهذه الأمراض ، ومن علومهم التجريبية "علم القيافة " وهو اقتفاء الأثر فإذا ارتكب شخص جناية تتبعوا آثار أقدامه فى الرمال وكانوا يميزونها عن غيرها ويعرفون صاحبها مهما بعدت المسافة ، ولهم فى ذلك مهارة غريبة تفوق الوصف فكان هؤلاء القوم يقومون مقام إدارة المباحث فى هذه الأيام . وكانوا يعتمدون فى الطب على التجارب ويعرفون الأمراض التى يتعرض لها سكان الصحراء العربية كبعض أنواع الحميات ، ويكاد يكون الكى بالنار هو الدواء الوحيد لجميع الأمراض عندهم ، وعلى الجملة فإن العرب كانوا فى علومهم ومعارفهم أقل من الأمم الأخرى التى كانت تجاورهم .

٢–الحالة الدينية :

كانت الديانة المنتشرة فى شبه الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى (وهو عصر ما قبل الإسلام) هى الديانة الوثنية وهى عبادة الأصنام ، وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه الكريم بعض هذه الأصنام ، وبين سفه العرب الذين كانوا يقدسونها حيث يقول الله سبحانه وتعالى : " أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ

إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ " . [1] سورة النجم .

وكان أهل مكة يحجون إلى هذه الأصنام ويقدمون لها القرابين ، وكان لا يجوز أن تقتلع أشجار من حماها ولا يصاد صيد ، ولا يراق دم آدمى فيها تعظيما لشأنها وتقديسا لها حتى إن العرب كانوا يضيفون إليها أسماءهم ، فكان عبد العزى من الأسماء الشائعة عندهم والمحبوبة لديهم .

وكانت الكعبة فى ذلك العصر الجاهلى مقر الوثنية إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب وكان أعظمها عندهم : " هبل " وهو تمثال من العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى وقد أدركته قريش وهو مكسور اليد اليمنى فصنعت له يدا من ذهب . أما عقيدتهم فى تلك الأصنام فقد كانوا فريقين : فبعضهم كان يعبدها على أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه. ويقولون إذا سئلوا عن الخالق الرازق إنه هو الله ، وإذا سألوا عن الأصنام يقولون : " مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ " . سورة الزمر آية ٣ .

وبعضهم كان يعبدها على أنها هى الآلهة التى تضر وتنفع ، وتعطى وتمنع ، وتحيى وتميت ، وهؤلاء عامتهم وضعفاء العقول منهم . وقد نشأت عبادة الأصنام على ظهر الأرض منذ عهد "قابيل بن آدم" فقد روى أن ودًا ، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، كانوا قوما صالحين فى عهد بنى قابيل بن آدم ولكنهم ماتوا جميعا فى شهر واحد ، فجزع عليهم أهلوهم . وقال رجل منهم : يا قوم هل أصنع لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن أجعل فيهم أرواحا ؟ قالوا نعم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، ولما تطاول عليهم الزمان نسوا أن هذه التماثيل صور أولئك الذين ماتوا من قديم الزمان ، فعبدوهم واتخذوهم آلهة ، وقد بعث الله سبحانه وتعالى (نوحا) بعد ذلك فأمرهم بترك عبادة هذه الأصنام فلم يستجيبوا له وكذبوه

---

[1] ضيزى أى جائرة ـــ يقال : ضاز فى حكمه جار . والمعنى : أجعلتم لله تعالى ما تستنكفون منه من أن هذه الأصنام مع غاية حقارتها بنات لله سبحانه ، وكانوا يقولون لها وللملائكة : بنات الله ، واللات : صخرة لقبيلة ثقيف بالطائف ، والعزى : صخرات بنخلة لغطفان وهى التى قطعها خالد بن الوليد بأمر من النبى ﷺ ، ومناة : صخرة لهذيل وخزاعة ، وقيل إن الثلاثة كانت أصناما بالكعبة .

فـــأخـــذهم الطوفان ، ونجى الله تعالى نوحا ومن معه ، وما آمن معه إلا القليل .

وقد كانت عبادة الأصنام فى شبه الجزيرة العربية متأثرة بمثل هذه الظروف ، فهى تماثيل قديمـــة لبعض العظماء الذين اشتهروا بمميزات خاصة دفعت الناس إلى تخليد ذكراهم وبتطاول الـــزمن نسى الناس أنـــها تماثيل واعتقدوا أنـــها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه ، بل اعتقـــد بعضـــهم أنـــها آلهة. وكان هناك قوم فى اليمن يعبدون الشمس وهم الذين ذكر الله قصتهم فى القـــرآن الكريم مع سليمان عليه السلام فى قوله تعالى – حكاية عن الهدهـــد : " إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ ". سورة النمل .

وكان هناك طائفة من العرب يعبدون النار وهم "المجوس" وقد انتقلت إليهم هذه الديانـــة مـــن الفرس الذين كانوا يجاورونـــهم . وكانت هناك ديانات أخرى كاليهودية فى "يثرب وخيـــبر" والمسيحية فى "الحيرة وغسان" .

وهكذا كانت شبه الجزيرة العربية فيها أديان مختلفة ولكن الغالبية العظمى والأكثرية الســـاحقة كانت تدين بالوثنية ، وقد ظهر فى شبه الجزيرة العربية عدد قليل من الناس أدركوا بعقولهم فساد هذه الأديان جميعا ووصلوا إلى توحيد الله تعالى .

قصة إسماعيل عليه السلام فى مكة

نشأ إبراهيم عليه السلام فى بلاد العراق ، وفيها دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل وترك عبـــادة الأصنام ، وقد عاش مدة طويلة دون أن يرزقه الله بولد من زوجته (سارة) وكانت سارة حزينة من أجل ذلك فحملتها شفقتها على زوجها إبراهيم وحبها له أن تـــهب له جاريتها (هـــاجر) وقالت له : "إنى حرمت من الولد ، فعسى الله أن يرزقك منها غلاما تقر به عينك" وقد حقـــق الله تعالى آمال (إبراهيم) وزوجته (سارة) فحملت (هاجر) وولدت (إسماعيل) وكـــان أبـــوه إبراهيم فى السادسة والثمانين من عمره ، ثم أوحى الله تعالى إليه فأخذ هاجر وطفلها بأمر من الله تعالى وانتقل إلى شبه الجزيرة العربية حتى وصل بـــها إلى المكان الذى نبعت فيه بئر زمزم وكان

واديا مجدبا لا زرع فيه ولا ثمر ، ولما هم بالرحيل قالت له هاجر إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله واستودعتكما إياه ، فقالت :آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم انصرف إبراهيم من عندهما وهو يقول : " رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾" . سورة إبراهيم .

وبقيت هاجر مع طفلها فنصبت لها عريشا . وكان معها شيء من الطعام والشراب قد تركه معها زوجها إبراهيم ولما نفذ ما لديهما من الماء عطش إسماعيل عطشا شديدا فجعلت أمه تبحث له عن ماء وأخذت تتردد بين الصفا والمروة سبع مرات فلم تجد شيئا ، فرجعت آسفة حزينة ولكن حزنها لم يلبث أن انقلب سرورا واطمئنانا حين رأت الماء ينبع من تحت أقدام إسماعيل ، فشرب وحمدت الله وأقام بهذا المكان ، وسمى ذلك النبع العظيم الذى أكرم الله به هاجر وإسماعيل " بئر زمزم " .

وكان " بنو جرهم " بواد قريب من مكة فلما تفجر ماء زمزم لزمت الطير الوادى حين رأت الماء ، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادى قالوا : ما لزمته إلا وفيه ماء . فجاءوا إلى هاجر وقالوا : لو شئت فكنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك ، فقالت نعم . فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل منهم .

ويذكر المؤرخون أن إسماعيل تعلم اللغة العربية منهم هو وأولاده وأستأذن إبراهيم زوجته سارة أن يزور هاجر فأذنت له فقدم وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك؟ قالت : ليس هاهنا ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج للصيد ثم يرجع . قال إبراهيم هل عندك ضيافة ؟ ، قالت : ليس عندى ضيافة وما عندى أحد ، فقال إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له : فليغير عتبة بابه ، وجاء إسماعيل فقال لامرأته : هل جاء عندك أحد ؟ قالت : جاء لى شيخ صفته كذا وكذا ووصفته بأوصاف فيها استخفاف بشأنه — فعرف أنه أبوه قال : فماذا قال لك ؟ قالت : قال : أقرئى زوجك السلام ، وقولى له : فليغير عتبة بابه ، فطلقها وتزوج جرهمية أخرى . فلبث إبراهيم حينا من الزمن ثم أستأذن سارة أن

يزور إسماعيل فأذنت له حتى انتهى إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك ؟ ، قالت : ذهب يتصيد. فسألها عن عيشهم فقالت : نحن بخير ثم قالت له : انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل ـــ قالت : فأتيت له بإناء فاغتسل دون أن ينزل ، ثم قال لها : هل عندك ضيافة ؟ ، قالت : نعم وجاءت له باللحم واللبن والشراب ، وأكرمت وفادته ، فدعا لهما بالبركة . وقبل أن ينصرف من عندها طلب منها أن تقرىء زوجها السلام وتقول له : قد استقامت عتبة بابك . فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ ، قالت : نعم شيخ هو أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا فقال لى : كذا وكذا ، وقلت له : كذا وكذا . وغسلت رأسه ، وهو يقرئك السلام ويقول لك : قد استقامت عتبة بابك . وقد ثبت لدى العلماء أن عدنان وهو الجد العشرون للرسول ﷺ يمتد نسبه إلى إسماعيل عليه السلام .

أشهر الحنفاء [1]

وقد أشرنا فى كلامنا السابق إلى ما كان عليه العرب من وثنية فاسدة ، وعبادة باطلة تنفر منها الطباع السليمة والعقول الحرة ، وأنه من الثابت أن الكثرة من العرب عبدوا الحجارة والأصنام لا على أنها صاحبة الخلق ، بل على أنها وسيلة تقربهم إلى الله ، قال الله سبحانه وتعالى : " مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ " . سورة الزمر آية ٣ .

فالله تعالى كان معروفا لهم ، وكلمة الله كانت تتردد على ألسنتهم ، ومعروف أيضا أن والد النبى ﷺ كان يسمى عبد الله ، وكان هناك عدد منهم لم تعجبهم عبادة الأصنام إذ يرون أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لنفسها شيئا ، وأن هناك قوة قادرة تمد العالم بالحياة وأن هذه المعبودات التى آمن بها العرب لا توصلهم إلى الله الحق أبدا ، ولذلك أخذوا يبحثون بعقولهم عن الله سبحانه وتعالى .

وإليكم بعضا من هؤلاء الباحثين عن التوحيد :

---

[1] الحنيف : المسلم ، وتحنف الرجل : أى مال عن الباطل إلى الحق ، ويقال : اعتزل الأصنام وتعبد .

١- ورقة بن نوفل بن عبد العزى : ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد زوجة النبى ﷺ ، فكر فى شأن هذه الأصنام ، اللات والعزى وأنها حجارة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئا ، فاعتقد ببطلان عبادتها وخالف قريشا فى معتقداتهم وعبد الله وحده ، ثم اعتنق النصرانية ودرس أسس الديانة المسيحية مع الذين خالطهم من أهل الكتاب .

٢- زيد بن عمرو بن نفيل : ابن عم عمر بن الخطاب ، ترك عبادة الأصنام وصار يطوف ببلاد العرب وما جاورها ، يبحث عن دين إبراهيم عليه السلام حتى هداه الله تعالى إليه ، وكان يقول : " اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته [1] " وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : " يا معشر قريش والذى نفسى بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى " وهو الذى قال بعد أن ترك عبادة الأصنام :

أرب واحد أم ألف رب	أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الرجل البصير
فلا للعزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربى	ليغفر ذنبى الرب الغفور

و لم يدرك زيد الدعوة المحمدية بل مات قبلها بقليل .

البيت الحرام وتعرض الأحباش له

كان البيت الحرام مثابة للناس وأمنا منذ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولقد ظل مثابة التوحيد ومنبع النور والهداية مدة طويلة من الزمن ، ثم تسربت إليه الوثنية فى عهد قبيلة خزاعة فكانت الأصنام تحيط به من كل جانب وكان العرب يعبدون هذه الأصنام ويحجون إليها فى كل عام . ولما استولى الأحباش على بلاد اليمن وكانوا يدينون بالمسيحية ، بنوا كنيسة بمدينة صنعاء وعملوا على نشر هذا الدين فى شبه الجزيرة العربية حتى يضعف أمر الوثنية ، وقد غضب العرب الوثنيون لذلك فذهب أعرابى إلى هذه الكنيسة ولطخ جدرانها بالأقذار إهانة لها

[1] الراحلة : الناقة التى تصلح لأن يرحل عليها.

وتحقيراً لشأنها ، وحينئذ أقسم أبرهة الحبشى ليهدمن الكعبة كى ينتقم لدينه ويغسل هذه الإهانة . وتحرك جيش أبرهة متخذا طريقه إلى مكة وأصاب فى طريقه مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم سيد قريش فى ذلك الوقت ، وكانت غاية أبرهة أن يهدم الكعبة فحسب و لم تكن غايته الحرب والقتال ، فذهب إليه عبد المطلب وطلب منه أن يرد المائتى بعير التى أصابها فى طريقه فغضب أبرهة وقال له : أتكلمنى فى مائتى بعير ولا تكلمنى فى البيت الذى جئت لهدمه وهو دينك ودين آبائك !! فأجاب عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ويحميه ، فرد أبرهة قائلا : ما كان ليمتنع منى . فأجاب عبد المطلب : أنت وذاك ، فرد أبرهة على عبد المطلب المائتى بعير التى أصابها . وانطلق عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة إلى شعف الجبال والشعاب ثم تعلق عبد المطلب بحلقة الكعبة وأستارها وأخذ يقول :

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
هم جردوا لك جمعهم والفيل كى يسبوا عيالك
إن كنت تاركهم وما فعلوا فأمر ما بدا لك

وقد بدأ جيش الحبشة فى الهجوم تتقدمه الفيلة بشكلها المهيب المخيف ، وما كان هذا الجيش القوى ليغلب من ضعف وقلة ، لولا قدرة القوى القاهر التى تجلت فى تلك الآية الكبرى الباقية على الدهر ، إذ أرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب أحدا إلا هلك ، وقد ذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول ، فخرجوا هاربين يسألون عن الطريق إلى اليمن فقال أعرابى رآهم فى هذه الحيرة بعد ما أنزل الله عليهم العذاب :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وظلوا يتساقطون فى الطريق كأوراق الشجر وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم وجسمه يتآكل ويسيل منه الدم والقيح الكثير حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انشق صدره عن قلبه ، وكان ذلك جزاء وفاقاً لغروره وحمقه .

وإلى هذا الحادث الغريب يشير الله تعالى بقوله فى سورة الفيل :

" أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥ " . [1]

هكذا حمى الله بيته الحرام من عدوان الظالمين لأنه البيت العتيق الذى كان مصدر الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فلما تغيرت الأحوال وعبد العرب الأصنام وتركوا النور وتخبطوا فى الظلام ، شاء الله ألا يطول عليهم الأمد فى هذا الظلام وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد (القديم) ويتلألأ النور فيه من جديد ، على يد نبى الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ الذى ولد فى هذا العام .

[1] أبابيل : جماعات ، سجيل : طين مطبوخ من النار ، عصف : زرع جاف داسته الدواب بأرجلها .

سيدنا محمد ﷺ نسبه من جهة أبويه

نسبه من جهة أبيه :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

نسبه من جهة أمه :

أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وكلاب هو الجد الخامس للرسول ﷺ من جهة أبيه . وقد اتفق العلماء على أن عدنان هو الجد العشرون للرسول ﷺ من ذرية سيدنا إسماعيل عليه السلام . ولقد كان النبى ﷺ من سلالة آباء كرام وكلهم سادة وقادة ولهم مكان مكين ، ومقام بين العرب عظيم . وقد تناسل ﷺ من نكاح مشروع ، ولم يكن فى أجداده من تلوث بسفاح الجاهلية بل طهر الله أصوله تطهيرا ثم اصطفاه بعد ذلك من هذه الأصول الطاهرة ليكون رحمة للعالمين وليهدى الناس بنور الحق المبين .

مولده ورضاعه :

خرج عبد المطلب بولده عبد الله ، يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ : أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله ﷺ ولم يمكث عبد الله مع زوجته إلا وقتا قصيرا ، ثم خرج فى قافلة تجارية إلى الشام بعد أن حملت زوجته . وقد شاء الله أن ترجع القافلة التجارية من الشام ويتخلف عبد الله بالمدينة عند أخواله من بنى عدى بن النجار لشدة مرضه ، حيث أدركته الوفاة ، وزوجته آمنة فى شهور الحمل الأولى ، وكان عمره ثمانية عشر عاما وقد ترك لزوجته وولدها الجنين ثروة ضئيلة هى خمسة من الجمال وقطيع صغير من الغنم وجارية هى أم أيمن ، ولما تم حمل آمنة ووضعت ولدها ، جاء البشير إلى جده عبد المطلب فأخبره بهذا النبأ العظيم ، ففرح عبد المطلب بهذه البشرى وأقبل مسرورا وحمل الوليد الصغير بين يديه وذهب إلى الكعبة يباركه ، ثم سماه محمدا ولم يكن هذا الاسم شائعا عند العرب قبل ذلك ، ولكن الله ألهم جده

بهذه التسمية ، وقال : سميته محمدا ليكون محمودا عند الله وعند الناس .

وقد كانت ولادته ﷺ فى فجر يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ ميلادية وهو العام الذى وقع فيه حادث الفيل الذى تحدثنا عنه قبل ذلك (ومن العجيب أن المشهور بين الناس أن ميلاد الرسول فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ولكن التحقيق العلمى هو ما ذكرناه) ونزل ﷺ على يد (الشفاء) أم عبد الرحمن بن عوف فهى قابلته وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل من ثقل ولا وحم ولا غير ذلك. وقد كان المسلمون ولا يزالون ، يحتفلون بيوم مولده ، فَيُقْرأ كتاب الله وتتلى سنة رسوله وتوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين ، وفى هذا آية بينة على تعظيمه ومكانته الكبرى من قلوب المسلمين .

رضاعه :

أول من أرضعه ﷺ من النساء أمه آمنة ثم ثويبة الأسلمية جارية أبى لهب ، وأم أيمن ، وأكثرهن إرضاعا له حليمة السعدية .

وقد جرت عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية بعيدا عن المدن لينشأ الطفل صافى الذهن قوى العزيمة ، صحيح الجسد فجاءت المراضع يطلبن أطفالا للرضاعة ، فكان محمد بن عبد الله من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، واسم زوجها أبو كبشة ، وقد كان لرضاع محمد عندهم أثر محمود فى حياتهم ، فاتسعت أرزاقهم بفضل الله ورحمته ، وكان وجوده خير وبركة ، وظل معهم مدة تقرب من خمسة أعوام وأسعدها الله بالإسلام هى وزوجها وبنوه بعد ذلك .

شق صدره الشريف :

لقد جرت سنة الله تعالى فى أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات قبل أن يبعثهم إلى الناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم ، وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بَهْمٍ [1] خلف بيوتهم : فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه

---

[1] يقصد أنهما كانا بجوار البهم ، والبهم ولد الضأن أى بجوار ما يرعون من الغنم فى البادية .

وأمه: ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه [1] ، تقول السيدة حليمة فخرجت أنا وأبوه [2] فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟! قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى ، فالتمسا فيه شيئا لم أدر ما هو . وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شىء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصت عليها ذلك النبأ العجيب ، فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابنى هذا لشأنا ، فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل ، ولقد رأيت وأنا أحمله كأنه نورا خرج منى فأضاء لى قصور الشام ، ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره . وقد تكون هذه الحادثة العجيبة إشارة إلى تطهير الرسول ﷺ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس ، والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية ، كما لفت هذا الحادث أنظار العرب إليه وسلط عليه الأضواء حتى يكون ذلك إعدادا لأذهانهم لما سيكون عليه أمر محمد ﷺ وما ينتظره من الدعوة الإلهية .

سفره مع أمه إلى المدينة :

ثم رجعت حليمة بمحمد إلى أمه آمنة فى مكة فظل معها حتى بلغ ستة أعوام فأخذته لزيارة أخوال جده من بنى عدى بن النجار فى يثرب وأخذت معها أم أيمن وهى الجارية التى خلفها عبد الله من بعده فلما وصلوا إلى يثرب رأى محمد قبر والده فانطبعت فى نفسه معان عميقة ظل يشعر بها طول حياته ، حتى لقد تحدث إلى أصحابه بعد الهجرة النبوية عن الذكريات الأليمة التى تركتها هذه الرحلة فى نفسه وهو طفل صغير .

وفاة أمه وحضانة أم أيمن له :

وقد مكثت آمنة شهرا فى يثرب وبينما هى عائدة إلى مكة أدركتها الوفاة فى الطريق فماتت بالأبواء [3] وعمرها ثلاثون سنة فرجع محمد مع جاريته أم أيمن إلى مكة محزون القلب لوفاة أمه وهو أحوج ما يكون إلى عطفها وحنانها فى هذه السن الصغيرة . وتولت أم أيمن حضانته بعد

---

[1] يقلبانه .

[2] أى أبوه من الرضاع زوج السيدة حليمة .

[3] قرية بين المدينة ومكة ولكنها لا تبعد عن المدينة سوى ثلاثة وعشرين ميلا .

وفاة أمه ، ولذلك كان ﷺ يقول لها " أنت أمى بعد أمى " ثم أوصلته إلى جده عبد المطلب الذى يحبه ويكرمه .

كفالة جده عبد المطلب :

كان لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ولا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إجلالا له واحتراما ، وكان محمد يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عن فراش جده فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك منهم ، دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا . ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما كان يصنع . وكان محمد يرى من جده هذا العطف والحنان ، فلا يحس بألم اليتم بل يجد فى هذا الجد خير العوض عن أبيه وأمه ، ولكن الزمن لم يمهل عبد المطلب بعد وفاة آمنة سوى عامين ، ثم أدركته المنية ، ومحمد لا يزال فى الثامنة من عمره .

كفالة عمه أبى طالب :

لما حضرت الوفاة جده عبد المطلب أوصى به إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه واسمه عبد مناف وعبد الكعبة . ولقد كفله أبو طالب فكان يمثل الأبوة الرحيمة والعمومة الكريمة ولذا كان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه ويخرج به متى خرج وكان أبو طالب قليل المال كثير الأولاد ، ولكن كانت كفالته لمحمد فاتحة خير كثير فوسع الله عليه ، وبارك له وأدرك أبو طالب ذلك فازداد حبه لمحمد ، وأدرك محمد هذا الحب الذى يغمره به عمه فوجد فى ذلك ما أنساه مرارة اليتم وعوضه خير العوض عن جده وأبيه .

سفره معه إلى الشام وقصة بحيرى الراهب :

وقد سافر عمه أبو طالب فى تجارة إلى الشام ومحمد فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يطق محمد أن يفارق عمه فأخذه معه إلى الشام وقد قابلهم بالقرب من بصرى[1] راهب يقال له (بحيرى)[2] فأخذ يسأل محمدا عن أشياء عن حاله وعن قومه وهيئته وأموره وأخذ محمد يخبره بخبره فيوافق

---

[1] قرية فى الحدود بين الشام وبلاد العرب .

[2] بحيرى كان راهبا مسيحيا فى الشام عالما فلكيا منجما وقد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصل إلى الشام وكان يأمر الناس بعبادة الله وينهاهم عن عبادة الأصنام وكان من تلاميذ سلمان الفارسى ، ومعنى بحيرى : عالم متبحر .

ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب يقول له : ما هذا الغلام منك؟ ، فقال : " ابنى " ، فقال له بحيرى : " ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا" ، قال : " فإنه ابن أخى " ، قال : " فما فعل أبوه؟ " قال " مات وأمه حبلى فيه " قال " صدقت " فلما رأى بحيرى فى محمد من أمارات النبوة ما جعله يؤمن بأنه هو النبى المنتظر الذى بشرت به الكتب المقدسة نصح إلى أهله ألا يوغلوا به فى بلاد الشام خوفا عليه من اليهود أن ينالوه بأذى إذا رأوا فيه تلك الأمارات .

قال سبحانه وتعالى : " ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ " . سورة البقرة آية ١٤٦.

وقال تعالى : " ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ " . سورة الأعراف .

أحواله قبل البعثة :

نشأ محمد ﷺ نشأة كريمة فكان مطبوعا على الخير مفطورا على كريم الصفات ومحاسن الأخلاق ، وذلك لأن الله عز وجل قد صنعه على عينه وأدبه فأحسن تأديبه ، وقد جاهد ﷺ فى الحياة وكافح فى سبيل العيش .

اشتغاله ﷺ برعى الغنم والتجارة

لقد اشتغل ﷺ بالتجارة ، واشتغل كذلك برعى الغنم وكان يتحدث عن ذلك بعد البعثة ، فيقول " مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَاعِيَ غَنَمٍ " ويقول : "بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد" [1] .

[1] أجياد : مكان معروف بمكة .

وكان فى تجارته مثال الصدق والأمانة فعمت ثقة الناس به ، وكان فى رعيه للغنم مثال الرحمة والجلد والمثابرة ، فكان الناس يتحدثون عنه حديث التقدير والإعجاب ، وما كانوا يدرون أن راعى الغنم سيصبح بعد قليل من الزمان راعى شعوب وأمم ومرشد البشرية إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ولقد حضر محمد ﷺ فى شبابه حرب الفجار وهى حرب قامت بين كنانة وقيس وهما قبيلتان من قبائل العرب ، وقد انضمت قريش إلى كنانة ، وكان محمد ﷺ مع أعمامه يناولهم السهام أحيانا ويقاتل معهم أحيانا أخرى ، ولقد استمرت هذه الحروب أربعة أعوام ، ثم انتهت بالصلح بين الفريقين . ثم شهد محمد ﷺ بعد حرب الفجار حلفا وميثاقا كريما يدعو إلى الدفاع عن الحقوق وحماية المستضعفين وهو حلف (الفضول) وقد عقدته قريش بعد رجوعها من حرب الفجار فى دار (عبد الله بن جدعان) بمكة ، وتعاقدت فيه أن تحمى الضعفاء والمظلومين حتى يأمن كل إنسان على ماله وعياله وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب ، وكان محمد ﷺ وقت حضوره هذا الحلف فى العشرين من عمره ، وقد ترك هذا الحلف العظيم فى نفسه أعمق الآثار لأنه حلف إنسانى يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق ، وقد تحدث ﷺ عنه بعد البعثة فأثنى عليه وقال " لقد شاهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أود لو أن لى به حُمْرَ النَّعَمِ [1] ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت " . وقد اشترك محمد ﷺ فى بناء البيت الحرام وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكانت جدرانه قد تصدعت فهدمته قريش لتبنيه من جديد ، فكان رسول الله ﷺ فيمن يحملون الحجارة . ولما أرادوا وضع الحجر الأسود فى موضعه ، اختلف أشرافهم فيمن يضعه ويحوز هذا الشرف العظيم ، وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تنشب بينهم نار الحرب ، فقال أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، وكان كبيرا فيهم : "يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه" فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا ، فكان هذا الداخل هو محمد ﷺ فاطمأن الجميع لما يعهدون فيه من الأمانة ورجاحة العقل وصدق الحديث ، وقالوا "هذا الأمين رضيناه حكما بيننا" فلما عرضوا عليه الأمر بسط رداءه

---

[1] حمر النعم : هى الإبل الحمراء وهى أجود أنواع الإبل ، ويريد أن يبين أن هذا الحلف عنده أحسن من الإبل الحمراء التى يحبها العرب .

ووضع الحجر فيه ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهى إلى موضعه فأخذه بيده الكريمة ووضعه فيه ، وهكذا انتهت مشكلة كبرى كادت تودى بقريش لولا حكمة محمد بن عبد الله وبعد نظره وسداد رأيه ، وعلى هذا النحو الكريم كانت أحوال محمد ﷺ قبل البعثة النبوية .

تجارته ﷺ فى مال السيدة خديجة وزواجه بها رضى الله عنها

كانت السيدة " خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى " امرأة حازمة شريفة غنية من أوساط قريش نسبا وأعظمهم شرفا ، وقد أراد الزواج منها كثيرون بعد موت زوجها الثانى فلم تقبل . وقد بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، فعرضت عليه أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام ، وتعطيه أفضل مما تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له (ميسرة) فقبل رسول الله ﷺ ، وخرج مع غلامها ميسرة حتى نزل الشام وربحت التجارة ربحا عظيما ، وظهرت له بركات قصها ميسرة على سيدته بعد عودتهما ، فأحبت السيدة خديجة محمدا حبا جما وأرسلت إلى عمها (عمرو بن أسد) ليزوجها ، وذهب محمد مع عمومته ، وخطبها من عمها بواسطة عمه أبى طالب وكان فى الخامسة والعشرين من عمره بينما كانت خديجة فى الأربعين .

بعثته ﷺ

أرسل الله تعالى النبى محمدا ﷺ إلى الناس كافة . قال الله تعالى : " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ " . سورة سبأ .

وقال تعالى : " تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ " . سورة الفرقان .

وقد وردت البشارة به فى التوراة والإنجيل ، قال سبحانه وتعالى : " وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ

بَعۡدِى ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ " سورة الصف ، فعيسى عليه السلام بشر برسالة محمد ﷺ وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة ولا يأتى بعده نبى ولا رسول .

بـــدء الـــوحـــى :

لم ينـــزل الوحى على رسول الله ﷺ فجأة ولكن سبقته مقدمات مهدت لنـــــزوله وهيـــأت الرسول ﷺ لذلك الشرف العظيم ، وهو شرف الرسالة ، والتبليغ عن الله عز وجل ، وأول هذه المقدمات الرؤيا الصادقة فكان عليه الصلاة والسلام ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أى وقعت كما يراها فى المنام ، ليس فيها أوهام ولا أضغاث أحلام ثم حببـــت إليـــه الخلـــوة والانقطاع عن الناس ، فكان يخلو (بغار حراء) [1] ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ويحمل معـــه الطعام والماء ، فإذا فرغ رجع إلى السيدة خديجة . فحمل ما يحتاجه من الزاد ، ثم ينطلق إلى الغار ليتعبد وهذه العبادة قيل : إنـــها كانت على دين إبراهيم ، وقيل : كانت بالتأمل والتفكر فى هذا الكون العجيب وما يحيط به من أسرار دقيقة تدل على وجود إله قدير ، قال تعـــالى : " لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ " . سورة الشورى آية ١١.

وقـــال تعـــالى : " إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ " آل عمران آية ١٩٠ .

ولما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة جاءه الوحى وهو جبريل وذلك فى يوم الاثنين السابع عشر مـــن شهر رمضان فى غار حراء ، فضمه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد وقال له : اقـــرأ ، فقـــال رسول الله ﷺ (ما أنا بقارئ) أى لا أعرف القراءة لأنى أمى لا أقرأ ولا أكتب ، قال تعـــالى : " وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ " . سورة العنكبوت ٤٨ .

فكرر جبريل هذا الأمر مرتين ويجيبه الرسول ﷺ بنفس الجواب ثم قال له :

" ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ " . سورة العلق .

---

[1] هو غار فى أعلى جبل حراء يبعد عن مكة ساعة بالسير على الأقدام .

وقد رجع رسول الله ﷺ عقب هذا الحادث العجيب : يرتجف فؤاده ودخل على زوجته خديجة ، فقال : زَمِّلُونِي [1] فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ [2] ثم أخبر زوجته السيدة خديجة بما وقع له فى غار حراء وقال لها :" لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" [3] ، فطمأنته السيدة خديجة ، وبينت له أن وراء هذا الحادث خيرا كثيرا فقالت له : (وَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ [4] وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ [5] وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ [6] وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) .

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عنده علم بالكتب السماوية فقالت له خديجة : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك ، تقصد النبى ﷺ ، فقال ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ فلما علم من محمد خبر ما رأى أدرك أن هذا هو الوحى الذى كان ينزل على الأنبياء من قبل فبشر محمدا ﷺ بأنه سيكون نبى هذه الأمة ، وتمنى ورقة أن يمتد به العمر حتى تتحقق هذه الرسالة لمحمد ويأمره ربه بتبليغ الدعوة ليكون من أنصاره وأعوانه .

وقد توفى ورقة قبل أن تتحقق أمنيته ومكث الوحى مدة من الزمن لا ينزل على النبى ﷺ .

فترة تخلف الوحى :

اختلف العلماء فى المدة التى تخلف فيها الوحى عن رسول الله ﷺ بعد أن نزل عليه أول مرة فى غار حراء وأرجح أقوالهم إنها أربعون يوما ، ولقد مرت هذه الأيام الأربعون على الرسول ﷺ وكأنها أربعون سنة ، ولا عجب فى ذلك ، فقد اشتد به الشوق لنزول الوحى عليه ، وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى ، وهى اختياره رسولا بينه وبين الناس ، لكن الله تعالى : رحم محمدا من هذه الحيرة الأليمة ، فعاد إليه الوحى ونزل عليه قول الله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ " . سورة المدثر .

---

[1] لفونى فى ثيابى وذلك لشدة ما بلغه من الهول والفزع .

[2] الخوف والفزع .

[3] الموت أو المرض لشدة الرعب .

[4] القرابة .

[5] الكل : هو الذى لا يستقل بأمر ، والمعنى تعينه على حاجته .

[6] تساعده على الكسب .

الدعوة إلى الإسلام سرا

وبعد أن نزلت سورة المدثر أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس امتثالا لأمر ربه ، ولكنه بدأ سرا بين أهله وعشيرته الأقربين حوالى ثلاث سنين إلى أن أمره الله بإظهار الدعوة بعد ذلك .

الجـــهـــر بالدعـــوة

بعد الدعوة السرية التى استمرت ثلاث سنين تقريبا ، أمر الله رسوله ﷺ أن يظهر ما يخفى مـــن أمره ، وأن يجهر بالدعوة إلى ديـــن الله بقولـــــه تعـــالى : " فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ". سورة الحجر آية ٩٤ " أى أظهر دينك" ، أى لا تبال بهم ولا تلتفـــت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة ، وبقوله تعـــالى : " وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ " سورة الشعراء " أى تواضع لهم وأرفق بهم ولن جانبك لهم" .

وقد تطورت طريقة الدعوة بعد أن نزلت هذه الآيات ، واتخذت مظهر الجهريـــة الصـــريحة ، والإعلان العام . فأصبح محمد يجمع القوم ويكاشفهم بأمر الدين الحنيف الجديد بعد أن كـــان يهمس فى آذان الناس أن اعبدوا الله وحده واهجروا عبادة الأصنام . وبدأ بعشيرته الأقـــربين ، فكلف ابن عمه على بن أبى طالب أن يصنع لهم طعاما ويدعو أهله إليه ، وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم نحو الأربعين رجلا ، فلما اجتمعوا كلمهم الرسول فى شأن الدعوة الإسلامية الجديدة وما تدعو إليه من نبذ معتقداتـــهم الفاسدة والإيمان بالله وحده ، ولكنه لم يكن يعرض حديثه حتى قاطعه أبو لهب وكان أشدهم عنفا به ليفسد عليه الغرض من الاجتماع ، ودعا أبو لهب القوم إلى الانصراف معلنا أنه ما كان ينبغى أن نضيع وقتا فى هذا العبث والهذيان ، وطلب منهم أن يقوموا ، فسكت رسول الله ﷺ و لم يقل شيئا وتفرقت جماعتهم . ولكن الرسول ﷺ لم يفقد الأمل و لم تضعف عزيمته ، فأعاد الوليمة ثانية فى الغداة . فلما اجتمعوا قال لهم : "ومـــا أعلم أن إنسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد

أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى [1] على هذا الأمر؟ " فأعرضوا عنه وهموا بتركه ، ولكن عليا نهض ـــ وهو لا يزال صبيا ـــ وقال : أنا يا رسول الله حرب على من حاربت. فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم وأخذ نظرهم يتنقل بين أبى طالب وابنه ويقولون لأبى طالب فى سخرية : إنَّ أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه ثم انصرفوا مستهزئين . على أن استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه و لم يسلمه إلى يأس ، بل انتقل بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعا. واتجه الرسول ﷺ نحو الصفا [2] يوما وصعد إلى أعلاه ونادى :"يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا ينادى وأقبلوا عليه يسألونه عن حاجته ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا قط . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة .. وأخذ ينادى على باقى القبائل ـــ إنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا ، إلا أن تقولوا : " لا إله إلا الله " فنهض أبو لهب وكان رجلا بذيئا سريع الغضب وصاح قائلا : تبا [3] لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فسكت محمد ﷺ ونظر إليه نظرة يملأها الأسى والأسف ، ثم نزل عليه الوحى بقوله تعالى : " تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ " .سورة المسد .

وهكذا دمغه الوحى بهذه الآيات البينات التى كانت بمثابة التشجيع للنبى محمد ﷺ كما كانت سابقة فألٍ ومقدمة بشارة ، بأن الله سينصر الحق على الباطل ويتم نوره ولو كره المشركون .

إيذاء قريش للنبى وأصحابه

فزعت قريش لهذه الدعوة الجديدة ، وهالها الأمر إذ كانت ترى فيها الخطر الداهم الذى يهدد كيانها المادى والأدبى فلقد كانت الكعبة مركز عبادة الأصنام وكانت محج العرب ومورد ثروتهم ، وكان زعماء قريش يستمدون مجدهم وفخارهم وعزهم وعظمتهم على سائر الناس

---

[1] أى يعاوننى .

[2] جبل معروف فى مكة منه يبدأ السعى بين الصفا والمروة .

[3] أى هلاكا .

من صلتهم بالبيت الحرام ، وقيامهم على حراسة الأصنام وسقاية الحجاج كما كانوا يعتبرونها مورد رزق وينبوع ثروة ، بالتجارة التى يحترفونها . فانتصار محمد معناه ضياع سلطانهم الأدبى والمادى ، وهو أعز ما يعتمدون عليه فى حياتهم ، لذلك عظم الأمر واشتد ، وأخذوا يفكرون فى حزم وجد فى أمر محمد بعد أن نال من أصنامهم جميعا فعملوا على إعاقة الدعوة الإسلامية باضطهاد صاحبها ومن اتبعه .

إيذاؤهم للرسول ﷺ :

روى عن طارق المحاربى أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى السوق يقول : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا) ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة قد أدمى عقبه [1] وقال : لا تطيعوه فإنه كذاب . فقلت من هذا ؟ قالوا محمد وعمه أبو لهب .

أما امرأته أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، فكانت أيضا فى غاية العداوة لرسول الله ﷺ وكثيرا ما كانت تضع الشوك فى طريقه ، وتلقى بالقاذورات النجسة أمام بيته ، ولم تترك عملا فيه إيذاء للرسول ﷺ إلا فعلته وحتى لم تكتف بهذا الإيذاء العملى بل كانت تسب الرسول ﷺ وتذمه ، وتوقع العداوة بينه وبين الناس ، لعنها الله : وأنزل فيها قوله تعالى : " وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ ﴿٥﴾ " . سورة المسد [2] .

أما أبو جهل لعنه الله فكثيرا ما أساء إلى الرسول ﷺ وقد ألقى عليه مرة أثناء صلاته شاة مذبوحة ، فتحمل الأذى وذهب إلى ابنته فاطمة رضى الله عنها فأزالت عنه النجاسة والأقذار ، ونهى الرسولَ ﷺ عن الصلاة فى البيت الحرام ، فلما لم ينته تعرض له بالمنع فقابله الرسول بالشدة ، وهدده ، فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ومنزلا ؟ فرد الله تعالى عليه تهديدا له ووعيدا بقوله : " كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ " . سورة العلق [3] .

وكان عقبة بن أبى معيط يجاور رسول الله ﷺ فى منزله ، ومما صنعه ذلك الشقى : ما رواه

---

[1] العقب : مؤخر القدم .
[2] جيدها : عنقها ، والمسد ما يفتل من الحبال فتلا شديدا .
[3] لنسفعا : لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها فى النار ، الزبانية : ملائكة النار .

البخارى فى صحيحه قال : بينما النبى ﷺ يُصَلِّي بفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَنَقَهُ به خَنْقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ ﷺ وقال: " أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ " .

وكان الأسود بن عبد المطلب ابن عم السيدة خديجة كان هو وحزبه إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون بهم سخرية واستهزاء ، وفيهم نزل قوله تعالى : " إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ " . سورة المطففين .

وكان الوليد بن المغيرة عم أبى جهل من أكابر قريش فى المركز الاجتماعى والمادى ، وكان كذلك من أكابر المجرمين الذين كادوا للرسول صلوات الله وسلامه عليه . سمع القرآن مرة من النبى ﷺ فقال لقومه " والله لقد سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق [1] وإنه يعلو ولا يعلى عليه " فقالت قريش صبأ [2] والله الوليد لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، ثم توجه إليه وجلس أمامه حزينا ، وكلمه بما حمسه ضد محمد مما جعل الوليد يأتى القوم فى ناديهم ويخاطبهم قائلا : أتزعمون أن محمدا لمجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا فما هو ؟ ففكر قليلا ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه فرق بين الرجل وأهله وولده . فاهتز النادى فرحا بهذا الرأي الذى سيفرق بين محمد وعشيرته ، وسيباعد بينه وبين الناس ، وأنزل الله ردا عليه فى آيات بينات مخاطبا الرسول ﷺ : " ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ

---

[1] أغدق المطر : كثر قطره فيكون المعنى كثير الخير .

[2] صبأ : يعنى خرج من دينه إلى دين آخر .

كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ " سورة المدثر [1]

وغير هؤلاء وهؤلاء ممن عميت بصائرهم وطمس الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، وقد هلكوا جميعا بعد الهجرة فمنهم من قتل ومنهم من ابتلاه الله بالأمراض الفتاكة فقضت عليه .

لون آخر من ألوان الإيذاء (عناد قريش) :

لقد اعترضت قريش على النبى ﷺ وطلبت إليه عدة مطالب على وجه العناد لا على وجه طلب الهدى والإقناع ، ولذا لم يجابوا إلى كثيرا مما طلبوا لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لو أجيبوا إلى ما سألوه لاستمروا فى طغيانهم وكفرهم ، قال تعالى : " وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ " ، " وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ " . سورة الأنعام .

وروى أن قريشا قالت للنبى ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك . فدعا ربه ، فأتاه جبريل فقال له : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبا ، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة . قال ﷺ بل التوبة والرحمة .

إيذاؤهم للمستضعفين من المسلمين

وقد بلغ من عنت قريش ووقوفهم فى سبيل الدعوة أن أذاهم لم يكن مقصورا على الرسول ﷺ بل تعدوا إلى المستضعفين والأرقاء الذين لم يكن لهم من يحتمون أو يعتزون بعصبيته فقبض أهل

[1] سأرهقه صعودا : سأذيقه عذابا لا يطاق ، عبس : قطب وجهه ، بسر : كلمة مرادفة لعبس . سقر : اسم من أسماء النار لا تبقى ولا تأتى شيئا إلا أهلكته .

مكة على الكثير منهم كى يفتنوهم عن دينهم ويردوهم بعد إيمانـــهم كفارا .

ومن هؤلاء :

١- بلال بن رباح الحبشى :

لاقى بلال من سيده أمية بن خلف أنواعا من الأذى ، وألوانا من التعذيب لا يصبر عليهـــا إلا مؤمن قوى الإيمان ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره ، ثم يضع حجرا على صدره ويقول له : ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات ، ولكنـــه احتمل كل هذه الآلام ، وصبر على الأذى والنكال ، وكلما التمسوا منه جوابا لا يرد عليهم إلا بتلك الكلمة التى ملكت نفسه ومشاعره (أحد..أحد) . وقد رآه أبو بكر يوما يقاســـى أشـــد العذاب فقال لسيده أمية : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ، فقال أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا ، فعرض عليه أبو بكر ثمنا له ، وما زال يساومه حتى اشتراه منه وأعتقه فى سبيل الله بعد أن خلصه من تعذيب سيده . وفى هذا نزل قول الله تعالى " فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ "

سورة الليل .

والمقصود بكلمة الأشقى فى الآية الكريمة هو أمية بن خلف ، والأتقى هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقد نبه الله عز وجل على أن بذل أبى بكر الصديق لمال فى شراء بلال وغيره لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، وكفى بـــهذا شرفا وفضلا .

٢-عمار بن ياسر :

وكان أبوه ياسر حليفا لبنى مخزوم ، ولما كان عمار وأبوه وأمه واقعين تحت نفوذ المشركين مـــن بنى مخزوم فإنـــهم أوقعوا بهم من العذاب مالا طاقة لأحد به فكانوا إذا اشتدت حرارة الشمس ألبسوهم أدرع [1] الحديد وصهروهم فى الشمس ، ويالها من قسوة بالغة إذا عرفنا حر مكـــة فى

[1] درع الحديد مؤنثة ، وقيل : يذكر ويؤنث ، درع المرأة قميصها .

فصل الصيف ، ولقد مر بهم رسول الله ﷺ وهم فى العذاب فقال لهم " صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة " ، " وأبشروا آل عمار وآل ياسر ، فإن موعدكم الجنة " وقد مات ياسر من العذاب ، وأما امرأته سمية فقد أغلظت القول لأبى جهل فطعنها فى قلبها بحربة كانت فى يده فماتت ، وشددوا العذاب إلى عمار بتعريضه للشمس المحرقة بين صخور مكة ورمالها تارة وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى ، قائلين له لا نتركك حتى تسب محمدا وتقول فى اللات والعزى خيرا ففعل فتركوه ، فأتى النبى ﷺ يبكى فقال : ما ورائك ؟ قال : شر يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا وقص عليه الخبر ، فقال : يا عمار إن عادوا فعد ، فأنزل الله تعالى : "مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ". النحل آية ١٠٦.

٣- خباب بن الأرت :

كان من السابقين فى الإسلام وكان رسول الله ﷺ يحبه ويألفه قبل النبوة . أخذه الكفار وسحبوه على وجهه ، وعذبوه عذابا شديدا فنزعوا ثوبه عن جسده وألقوه على الرمضاء [1] وجاءوا بالحجارة المحماة ووضعوها على ظهره ولووا رأسه ، كل ذلك من أجل أن يعود فى الكفر ولكنه لم يجبهم إلى شىء مما أرادوا ، و لم يزده التعذيب إلا إيمانا وتثبيتا .

٤- أبو بكر الصديق :

وممن أوذى فى الله أبو بكر الصديق رضى الله عنه على الرغم من مكانته فى قريش فلقد وجه إليه المشركون كثيرا من الأذى والعنت حتى خرج مهاجرا إلى الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة وهو من سادات العرب ، فسأله ، إلى أين يا أبا بكر ، فقال أخرجنى قومى وإنى أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال مثلك يا أبا بكر لا يخرج "وأنت فى جوارى وحمای" فرجع مع ابن الدغنة وعرفت قريش أن أبا بكر فى جواره وحماه فطلبت قريش من حامى الصديق أن يأمره بعبادة ربه فى داره ، ولا يجهر بصلاته وقراءته فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فلبث أبو بكر فى داره يعبد ربه ، ثم بدا له أن يبنى مسجدا بفناء داره ، فبناه ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فيهرع

---

[1] الرمضاء : هى الرمال الشديدة الحرارة .

إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ويسمعون إلى ما يقرأ ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة وقالوا له إن أبا بكر قد أخل بالشروط فابتنى مسجدا وأسمع الناس صلاته وقراءته وقد خشينا الفتنة على نسائنا وأبنائنا ، فأتى ابن الدغنة وقال له : إما أن تلتزم شرط الجوار وإما أن ترجع إلى ذمتى وجوارى ، فقال أبو بكر إنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ، وكان سببا فى أن ألحق بأبى بكر الكثير من الأذى والاضطهاد . هذا إلى جانب ما كانوا يسمونه من فحش القول واللغو من الكلام أينما كانوا ، فلم يزدهم ذلك إلا استمساكا بدينهم وحرصا على عقيدتهم ولا غرو فهم لم يدخلوا فى دين الله لغرض دنيوى يرجون حصوله ، بل شرح الله صدورهم للإسلام ، وخالطت بشاشته قلوبهم . وهكذا كانت تلك الفترة من أروع الفترات فى تاريخ الإسلام والمسلمين وكان هؤلاء الأبطال مثلا عاليا فى التضحية والفداء وقوة العزيمة وثبات الإرادة ، فضربوا للناس الأمثال ، وخلدوا ذكراهم بجلائل الأعمال ، ورسموا لأصحاب المبادىء السامية كيف يجاهدون فى سبيل الله ، وكيف يعملون لنصرة الحق وهزيمة الباطل .

حماية عمه أبى طالب له

صممت قريش على مقاومة محمد ﷺ حتى تقتل الدعوة الإسلامية وتموت فى مهدها ، ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، لأنه فى كفالة عمه أبى طالب . ومع أنه لم يدخل فى الإسلام و لم يؤمن بالله ورسوله محمد فقد ظل حاميا لابن أخيه قائما دونه معلنا استعداده للدفاع عنه لذلك مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب يطلبون من أن يكف ابن أخيه محمدا عن سب آلهتهم والعيب على دينهم وشتم آبائهم ، أو يخلى بينهم وبينه ، فرد عليهم أبو طالب ردا جميلا ، دون أن يعدهم وعدا صريحا بما يعزم عليه ، فاكتفوا بذلك وانصرفوا .

ولكن الرسول ﷺ مع علمه بهذا الاجتماع ومطالب كبار المشركين لم يسكت عن دعوته التى ملكت عليه كل قلبه ، و لم تخفف من هجماته على معتقداتهم الفاسدة . واستمر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه محمد قياما بالواجب عليه نحو من تربى فى كفالته ونشأ فى بيته ، مع أنه ظل

على شركه و لم يعتنق الإسلام ، لذلك كان مركزه حرجا ، ومهمته شاقة فأمامه قريش متعصبة لأصنامها ، وقد أغضبها محمد بنشره الإسلام ومحاربته الأصنام ، وابن أخيه محمد فى جواره حتما ولا يستطيع التخلى عنه أبدا .

وفكرت قريش فى مفاوضة أبى طالب مرة ثانية ، فذهبوا إليه وذكروه بوفادتهم الأولى ، وقالوا إنهم لا يصبرون على هذه الحال وخيروه بين أن يمنع محمد عما يقوله فى آلهتهم وآبائهم ، أو يعلن موافقته على كل ما يقول ، وعندئذ يحاربونه ويصارحونه بالعداء وتحرج مركز أبى طالب بهذا الإنذار وأصبح فى حيرة ! لأنه يعظم ويصعب عليه فراق قومه وعداوتهم ومع ذلك لا ترضى نفسه بخذلان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وتركه فى هذا الوقت العصيب الذى وقفت فيه أكابر قريش من ابن أخيه موقفا يثير العاطفة ويحرك العصبية .

وأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ وقص عليه ما طلبت قريش وقال له : أبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، وفى هذا الوقت سكت محمد فترة من الزمن ، وظن أن عمه ضعف عن نصرته فهو خاذله ومسلمه . ثم التفت إلى عمه بهذه النفس القوية بإيمانها قائلا : "يا عم ـــ والله ـــ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" وقد اهتز أبو طالب لما سمع من كلام ابن أخيه ووقف حائرا أمام هذه القوة وتلك الإرادة الغالبة على كل ما فى الوجود . وامتلأ قلبه ثقة بأن محمدا لن يخذل ولن يهن ولن يتراجع ، فناداه بعد أن قام من حضرته وقال له : " اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء مما تكره أبدا " .

الهجرة الأولى إلى الحبشة السنة الخامسة من البعثة ٦١٥ م

عز على النبى ﷺ أن يرى أتباعه يتعرض بعضهم للسخرية والازدراء وبعضهم للتعذيب والاضطهاد فأشار ﷺ على أصحابه فى السنة الخامسة من البعثة أن يتفرقوا فرارا بدينهم فسألوه أين نذهب ؟ فأشار إلى الحبشة [1] المسيحية فإن فيها ملكا لا يظلم أحد عنده ، فخرج بعض

[1] كان بين الحبشة ومكة تجارة واسعة تحملها قافلة سوية ، وكان يحكمها النجاشى واسمه وقتئذ "أصحمة" والنجاشى اسم لكل ملك يحكم الحبشة .

المسلمين إليها مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام . لقد خرج من مكة مهاجرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة منهم : عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية ابنة النبى ﷺ ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، خرجوا متسللين سرا ولما وصلوا إلى البحر الأحمر ركبوا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة فأقاموا فى خير جوار من "النجاشى" وبعد ثلاثة أشهر رجعوا إلى مكة ، لأن الإقامة لم تتيسر لهم ، فعددهم قليل ، ومع بعضهم نساؤهم كما بلغ مسامعهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش بعد إسلام حمزة وعمر .

آثار الهجرة الأولى :

١- أقنعت قريش أن أتباع محمد يقابلون الصعاب بصدر رحب من أجل دينهم ، ويفضلون أن يلحقهم كل أنواع العناء فى سبيل الله ورسوله .

٢- كانت مثالا باهرا فى التضحية .

٣- مهدت لفكرة الهجرة الكبرى إلى المدينة .

الهجرة الثانية إلى الحبشة
سنة ست من البعثة ٦١٦ م

وجد المسلمون أن موقف قريش لم يتغير بل اشتد وأخذ مظهرا جديدا بلغ فى قسوته وعنفه مبلغا كبيرا ، ولذلك فكر كثير ممن هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة أن يعودوا إليها مرة ثانية ، كما رغب غيرهم فى مرافقتهم لأن كثرة الداخلين فى الإسلام قد أفزعت قريش ودفعتها إلى الاستبداد بالمسلمين ، كما أن ما ترامى إليها من أخبار حسن الضيافة التى لقيها المسلمون فى الحبشة قد أقلق قريش وجعلها تخشى تدخل الحبشة لحمايتهم ، وعند ذلك يعجزون عن القضاء على المسلمين . وقد رسم المسلمون لأنفسهم خطة السير إلى الحبشة واستعدوا للرحلة إليها لإقامة كريمة ينعمون فيها بعبادة الله وحده آمنين حتى يأتى نصر الله ويعم نور الإسلام ويعودوا إلى أوطانهم . ذلك أملهم بلا شك ، نصر وكرامة وعزة وسيادة . ولقد خرج فى هذه

الهجرة الدينية الثانية ثلاثة وثمانون رجلا وإحدى عشرة امرأة ، فوصلوا إليها وأقاموا فيها مدة طويلة ، ثم عادوا بعد أن أذن الله للرسول بالهجرة إلى المدينة .

موقف قريش من المهاجرين إلى الحبشة :

لم يطمئن أهل مكة إلى خروج المسلمين إلى الحبشة هذه المرة ومن أجل ذلك أرسلوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ومعهما الهدايا النفيسة إلى النجاشى كى يرد المسلمين إلى مكة ، فلما دخلا عليه قالا له : " أيها الملك إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، فقد بعثنا أشراف قومهم لنردهم إليهم " .

موقف النجاشى :

وقد أبى النجاشى أن يرد المسلمين الذين هاجروا إليه حتى يسمع مقالتهم وبعث فى طلبهم ، فلما جاءوا سألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟ فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوم نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا وأخذ يذكر لنا تعاليم الدين الجديد فصدقنا وآمنا برسالته ، فعذبنا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام ، فلما ظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك . فقال النجاشى هل معك مما جاء عن الله شىء تقرؤه على ؟ فقال جعفر نعم : وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى : " وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ " . سورة مريم .

فقال النجاشى إن هذا هو ما جاء به موسى وسيدنا يسوع المسيح انطلقا فوالله لا أسلمهم أبدا . ثم عاد عمرو وصاحبه إلى مكة دون أن ينجحا فى مهمتهما . وعاش المسلمون فى جوار النجاشى فى أمن ودعة إلى ما بعد الهجرة الكبرى إلى المدينة .

مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب

كتابة الصحيفة وما تم فيها ــ المحرم سنة سبع من البعثة – ٦١٧ م

رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا واستقرارا ، وأن النجاشى قد منع وحمى من لجأ إليه ، وأن عمر قد أسلم وأعلن على الناس إسلامه ، و لم يرض عن استخفاء المسلمين .

المقاطعة وكتابة الصحيفة :

وإزاء ذلك كله فكرت قريش فى طريقة جديدة تفسد بـــها على محمد وصـــحبه غايتـــهم ، وتقضى بـــها على المسلمين ومن يناصرهم ويتعصب لهم من بنى هاشم وبنى المطلب فاتفقـــت على مقاطعتهم مقاطعة تامة ، فلا يتزوجون من نسائهم ولا يبيعون لهم شيئا ولا يشترون منـــهم ولا يخالطونـــهم ولا يقبلون منهم صلحا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يســـلموا رســـول الله ﷺ للقتل وسجلوا هذه القرارات فى صحيفة ختمت بأختام وعلقت فى جـــوف الكعبـــة تأكيـــدا لاحترامها فيكون الخروج عليها أو عدم الوفاء بما فيها بمثابة الخروج على العقيدة الموروثة .

وكانوا يعتقدون أن سياسة التجويع والمقاطعة سيكون لها من الأثر ما يحقق أغراضـــهم ، وإزاء تلك المقاطعة الغاشمة الجائرة انتقل كل بنى هاشم وبنى المطلب ومعهم الرسول إلى شعب كـــان يطلق عليه "شعب أبى طالب " بظاهر مكة يعانون الحرمان ألوانا حتى بلغ من سوء حـــالهم أن أكلوا أوراق الأشجار و لم يتخلف من بنى هاشم إلا أبو لهب الذى أسرف فى تعصبه للأصنام ، وفجر فى بغضه للإسلام فلم يرع للقرابة حرمة ولا للرحم مودة . واستمرت هـــذه المقاطعـــة المروعة ثلاث سنوات متتابعة لم يجرؤ أحد منهم خلالها أن يدخل مكة . ولقد خفـــف عـــن الرسول ﷺ وصحبه قسوة المقاطعة ، أنـــها لم تنفذ على الأشهر الحرم ثم إنه كانت تصلهم فى بعض الأوقات مساعدات سرية كالتى كان يقوم بـــها "حكيم بن حزام" ابن أخى خديجـــة إذ كان يحمل إليها الطعام فى ظلام الليل إلى حيث يقيمون فى شعبهم . وكذلك أحـــس بعـــض القرشيين بفظاعة ما ارتكبوه من ظلم وقسوة واتفقوا على نقض حلف المقاطعة ، ومن هؤلاء : "هشام بن عمرو القرشى" كان يأتى بالبعير محملا بالطعام فيسير به ليلا حتى يدخلـــه الشـــعب

عليهم ، و"زهير بن أمية" الذى ذهب فى الصباح إلى الكعبة ، فطاف بالبيت ثم نادى فى النـــاس "يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى؟ والله لا أقعد حـــتى تشق هذه الصحيفة الظالمة" وأيده فى هذا الرأى بعض العقلاء من القوم ، وجن جنون أبى جهل فى ذلك الوقت وكاد نزاع يقع لولا أن أبا جهل خاف سوء العاقبة فلم يفعل شيئا .

ما تم فى الصحيفة :

وعلم الرسول ﷺ أن الأرضة (وهى النمل الأبيض) أكلت الصحيفة و لم يبقى منها إلا "باسمـــك اللهم" واستبشر أبو طالب خيرا مما حصل للصحيفة وعزم على الاستفادة مما حدث لها ، فخرج فى عدد من بنى هاشم إلى الكعبة بين أمل يدفعه ورجاء يترقبه للخلاص مـــن هـــذا الحصـــار والتخلص من هذه المحنة ، وهناك خاطب الحاضرين من رؤساء قريش قائلا : " قد وصـــلنى أن وثيقتكم قد أكلتها الحشرات ، فاكشفوا عنها حتى إذ تحقق قولى كـــان علـــيكم أن تكفـــوا مقاطعتكم ، وإن لم يتحقق فإنى أعدكم بتسليم ابن أخى ، فوافقه الحاضرون من رؤساء قريش على اقتراحه ، وكشفوا عن الوثيقة فوجدوها كما قال أبو طالب قد انمحت كل الكتابة الـــتى كانت عليها عدا ذكر "باسمك اللهم" فتهلل وجه أبى طالب بشرا وعمت وجـــوه المشـــركين كآبة ، وأخذ كثير منهم يفكر فى صمت ، وخيم عليهم حزن عميق . ثم دخل أبو طالب بمـــن معه الكعبة ، وتضرع إلى الله أن يرفع أذى قريش وشرها ، وأن يكشف عن محمد وآله الســـوء ويخلصهم من تآمر قريش وعنادها ، ثم قفل راجعا إلى الشعب . وقد تشجع بـــهذه الحادثـــة هؤلاء الذين عقدوا النية على نقض الصحيفة ، فذهبوا إلى بنى هاشم وبنى المطلـــب فى مكـــان حصارهم وطلبوا منهم أن يرجع كل إلى بيته فى مكة آمنا ، وكان خروجهم فى السنة العاشـــرة من البعثة وكان خروجا عزيزا ، إذ به تأييد الرسول أيما تأييد ، وشعروا معه بأن الله يؤازر محمدا وحزبه ويخذل قريش وباطلها .

حالة الدعوة فى هذه الفترة :

كانت قريش ترجو من وراء هذه المقاطعة أن يعتزل محمد قومه ليصبح وحيدا ويـــزول خطـــر دعوته ، ولكن الأمر كان على عكس ما فهموا فلقد ازداد المسلمون إيمانا على إيمانـــهم وكان

النبى ﷺ فى زمن المقاطعة ينتهز فرصة أشهر الحج فيخرج لدعوة القبائل الآتية إلى مكة فذاع أمر الدين الإسلامى الجديد بين العرب وقبائلها ، مما جعل الإسلام ينتشر ذكره فى شبه الجزيرة العربية بعد أن كان حبيسا بين جبال مكة ، فلقد رجعت وفود الحجيج إلى بلادها تحمل خبر ظهور نبى اسمه محمد يدعو إلى الإسلام وترك عبادة الأصنام .

وفاة عمه أبى طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها :

لم يتمتع رسول الله ﷺ بذلك السلام مدة طويلة من الزمن إذ لم تمض عدة شهور على انحلال حلف المقاطعة حتى فاجأت محمدا فى عام واحد مفاجأتان اهتز لهما قلبه : وهما موت أبى طالب ، ومن بعده زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها وذلك فى العام العاشر من البعثة النبوية .

وفاة عمه أبى طالب :

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعا عن رسول الله ﷺ فلقد صبر طويلا على مناصرته ووقف حياته على تأييده وحمايته . وضحى بنفسه وراحته من أجل محمد الداعى إلى دين يخالف دينه ، كما كان درع محمد ﷺ عند البأس وحصنا له عندما تهم قريش بإيذائه ، وبردا وسلاما عليه حين تشتعل نار العداوة والبغضاء . فلما مرض واشتد به المرض وبلغ قريشا ذلك أخذ رؤساؤهم يفكرون ويتساءلون ماذا سيكون من أمرهم بعد وفاة أبى طالب ؟ وأخذوا يقولون إن حمزة وعمر المعروفين بشدتهما وبطشهما قد أسلما ، ودعوة محمد قد شاعت فى قبائل قريش كلها ، فذهبوا إلى أبى طالب وقالوا له : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه ، وكأنهم بذلك أرادوا أن يوسطوا أبا طالب وهو فى المرحلة الأخيرة من حياته للتوفيق بينهم وبين محمد . ولقد جاء محمد ﷺ إلى عمه أبى طالب والقوم عنده فعرض عليه أبو طالب رغبتهم فقال ﷺ : " يا عم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم" فقال أبو جهل : نعم نعم وعشر كلمات . قال : " تقولون لا إله إلا الله وتتركون ما تعبدون من دونه" فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن أمرك لعجيب ، ثم قاموا ، فقال أبو طالب : " والله يا ابن

أخى ما رأيتك سألتهم شططا " [1].

وقد طمع النبى ﷺ فى إسلام أبى طالب خاصة بعد أن رأى منهم ما رأى ، وبعد أن سمع منه الكلمة الحقة : "والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا" وتمنى النبى إسلامه فهو الذى كفله ودافع عنه إلى آخر لحظة من حياته فقال ﷺ "يا عم قلها" أى الشهادة ، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيام ، فقال أبو طالب : لولا مخافة المنية وأن تظن قريش أنما قلتها جزعا من الموت لولا ذلك لقلتها ، ومات كافرا وقد قارب الثمانين من عمره . وطلب الرسول ﷺ الرحمة من الله سبحانه وتعالى والمغفرة لأبى طالب ، فأنزل الله تعالى : " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ". سورة التوبة آية ١١٣.

وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها :

توفيت السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ رضى الله عنها ، فحزن عليها النبى حزنا شديدا ، ولا غرابة فى ذلك فهى أول امرأة صدقت النبى فيما جاء به عن ربه ، وأذهبت مخاوفه أول ما جاءه الوحى . وتفاءلت له وبه خيرا وبددت حيرته حين ذهبت به إلى ورقة بن نوفل الذى بشره بأن الذى يأتيه هو ملك الوحى الذى كان يأتى الرسل من قبله فهونت عليه كل شىء وأزالت من نفسه كل خشية . ودفعت عنه الكثير من الأذى لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى أسد . وأدخلت عليه السكينة والأمان برقة نفسها وطهارة قلبها ، وقوة إيمانها ، وقد استغنى الرسول ﷺ بما لها ليتفرغ إلى أعظم رسالة لهداية البشرية وكفاها فخرا وشرفا قول رسول الله ﷺ فى بعض حديثه : " وقد آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس ! وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء " .

أثر وفاة أبى طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها :

ولقد كان لوفاة عمه أبى طالب وهو من عرفنا موقفه من الرسول ﷺ والسيدة خديجة رضى الله عنها من الأثر ما جعل قريشا تطمع فى الرسول ، فتتابع الأذى عليه ، ونالت قريش منه فاشتد به

---

[1] الشطط مجاوزة المقدار فى كل شىء .

الأمر ورماه بعض سفهائهم بقاذورات ألقاها عليه وهو فى طريقه إلى بيته ، ورمى آخر التراب على رأسه فرجع إلى بيته وقامت فاطمة ابنته وجعلت تغسل التراب عنه وهى تبكى فكان يقول لها : " لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك " وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ وكان ﷺ يقول : " والله ما نالت منى قريش شيئا أكره حتى مات أبو طالب " .

خروجه ﷺ إلى الطائف

ولما زاد سفه قريش واشتد به الأذى ، ذهب إلى الطائف [1] بعد موت عمه بأسبوعين تقريبا ، لعله يجد من ثقيف [2] من ينصره ويؤمن بدعوته ، ولكنه لم يلق منها إلا الإعراض والإهانة ، و لم يجبه إلى دعوته أحد ، بل أغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون وراءه ، ويقذفونه بالحجارة حتى ابتعد عن الطائف ، فلجأ إلى حديقة لـ " عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة " فاحتمى بها وجلس فى ظل شجرة من عنب ثم رفع عليه الصلاة والسلام رأسه إلى السماء وقال : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى [3] أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى [4] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك " .

موقف عتبة وشيبة ابنى ربيعة من النبى ﷺ :

فلما رأى ابنا ربيعة محمدا وقد أخذ منه التعب ونال منه الجهد تحركت فيهما نخوة الكرم ، فأرسلا إليه عبدهما المسيحى (عداسا) بقطف من عنب فلما مد الرسول يده إليه قال : "بسم

---

[1] تبعد عن مكة حوالى سبعين ميلا شرقى مكة وهى مشهورة بجودة مناخها وكثرة الفواكه بها .

[2] قبيلة كبيرة معروفة كانت تقيم بالطائف وهى أعظم قبيلة فى العرب بعد قريش .

[3] تجهم له : استقبله بوجه كريه .

[4] العتبى : الرضا .

الله" ثم أكل ، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : " إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد " وأخذا يتحدثان ، ثم سأله الرسول ﷺ عن دينه وبلده فقال : نصرانى من نينوى [1] ، قال : أمن قرية الرجل الصالح (يونس بن متى) ؟ فقال له عداس وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال ﷺ : " ذاك أخى ، أنا نبى وهو نبى" ، فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه ولما رجع عداس إلى ابنى ربيعة قالا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل . قال : " يا سيدى ما فى الأرض من هو خير من هذا الرجل" .

عودة الرسول ﷺ إلى مكة :

ومن حديقة عتبة وشيبة اتجه رسول الله ﷺ نحو مكة فلما وصلها وجد قومه أشد مما كانوا عليه من الخلاف والعناد ، فلم يستطع دخولها إلا فى حماية (المطعم بن عدى) الذى تسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله ﷺ إلى الكعبة ، فطاف بالبيت ، ثم انصرف إلى منزله فى حراسة المطعم وأولاده .

عرض نفسه على القبائل :

لقى رسول الله ﷺ إرهاقا شديدا من أهل مكة وثقيف فهم لم يسكتوا لحظة واحدة عن الوقوف فى سبيل الدعوة ، بل لم تهن عزائمهم فى الكيد له ، حتى أنه لم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته من الطائف إلا فى حراسة المطعم بن عدى ، لذلك نراه يتجه نحو طريق آخر لعله يصل إلى ما يريد من أداء الرسالة وحمايته من أهل مكة المشركين ، فأخذ يعرض نفسه فى موسم الحج على قبائل العرب ينتظرهم على أبواب الطريق الموصلة إلى مكة ، ويذهب إليهم فى منازلهم . ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة فى أسواقهم يدعوهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ويطلب منهم أن يعينوه حتى يبلغ رسالة ربه ، فلا يجد منهم إلا الساخر والمستمع مجرد الاستماع ، والمعجب بشخصيته ودينه دون الرغبة فى اتباعه ، ومن العجب أن عمه أبا لهب لم يتركه و لم يدع القبائل تسمع له بل كان يتبعه أينما ذهب ، ويحرض الناس على الإعراض عنه ، وكانت النتيجة أن قبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب ردت على الرسول ردا

---

[1] بلدة على شاطىء دجلة بالقرب من مدينة الموصل .

قبيحا ، أما بنو عامر فقد طلبوا منه إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فلما قال لهم : " إن الأمر لله يضعه حيث يشاء " انصرفوا عنه وأعرضوا كما أعرض غيرهم . ثم عرض الإسلام على نفر من قبيلتى الأوس والخزرج سكان يثرب كانوا يحجون فى ذلك الموسم لكنهم وإن لم يستجيبوا له إلا أنهم تحدثوا عن هذه الدعوة بعد عودتهم إلى يثرب فتهيأت لقبولها بعض النفوس السليمة . فلما كان موسم الحج من العام المقبل جاء وفد من الأوس والخزرج وبايعوا رسول الله ﷺ عند مكان فى منى يسمى العقبة ثم جاء وفد آخر فى العام الذى يليه يتكون من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين والتقوا مع الرسول ﷺ فى نفس هذا المكان وبايعوا الرسول ﷺ على أن ينصروه ويؤازروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وهذه هى بيعة العقبة الثانية التى كانت من أهم أسباب الهجرة النبوية المباركة .

معجزة الإسراء والمعراج

بعد عودة المصطفى ﷺ من الطائف شاء الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقيم له ضيافة مع الله يقول له إن ضاقت بك الأرض فقد تتفتح لك أبواب السماء ، إن حاول البعض فى الدنيا وفى الأرض أن يتنكروا لمنهاجك وأن يؤذوك فأنت مدعو من قبل الحق للضيافة الربانية من فوق سبع سموات رحلة أرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ورحلة سماوية من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى حيث الحضرة الإلهية . وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معا ، ولذلك فهى من معجزاته الباهرة التى أكرمه الله بها . أما قصة ذلك فقد رواها البخارى ومسلم بطولها . وفيها أنه ﷺ أتى بالبراق ، وهو دابة فوق حمار ودون بغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه .. وفيها أنه ﷺ دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين ، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختار عليه الصلاة والسلام اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة .. وفيها أنه عرج به ﷺ إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة .. وهكذا حتى ذُهب به إلى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى .. وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين ، وهى فى أصلها خمسون صلاة فى اليوم والليلة . ولما كانت صبيحة اليوم التالى وحدَّث رسول الله ﷺ الناس بما شاهد ، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضا ليتناقلوا هذا الخبر الطريف

ويضحكوا منه . وتحداه بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس مادام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه ، والرسول حينما زاره لم يخطر فى باله أن يجيل النظر فى أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه ، فجلَّى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفا تفصيليا كما يسألون . روى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : " لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ " .

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه ، فقال : " إن كان قال ذلك لقد صدق ، إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ". وفى صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها . وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحا ومثليهما مساء كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

وفى الرحلة الأرضية رأى فيها أولا وقبل أن يصعد إلى السماء جميع الأنبياء مصطفين ينتظرونه وجاء جبريل وقدمه إماما عليهم وصلى الرسول ﷺ فى المسجد الأقصى إماما وهذه الصلاة فى المسجد الأقصى وهذه الإمامة تدل على أمرين ، أما الأمر الأول .. وهو أن المسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وإنه مَعْلم من معالم ديننا وجزء لا يتجزأ فلا تفريط فيه بأى حال من الأحوال وأما الحكمة الثانية فإنه أمَّ جميع الرسل وصلوا خلفه وهذا يدل على أن الإسلام دعوة عالمية وأن أَتْبَاع جميع الأديان إذا كان رسلهم اقتدوا برسول الله وكان إماما بالرسل جميعا فأولى بأَتْبَاع الرسل أن يقتدوا به وأن يتبعوه ، وأن يهتدوا بهديه .

ثم كانت الرحلة العلوية إلى السموات العلا حيث كان كل رسول يرحب به فى السماء التى يصعد إليها إلى أن بلغ هذا المكان العظيم الذى كان بعده سدرة المنتهى حيث حظى بالحضرة الإلهية وحيث فرض الله تعالى عليه خمسا من الصلوات خمسين صلاة فى أول الأمر وظل يطلب التخفيف إلى أن أصبحت خمسا بالفعل وخمسين فى الأجر والثواب ، كما ذكرنا سالفا.

الهجرة وأسبابها

هجرة المسلمين إلى المدينة :

لما رجع الأوس والخزرج من مكة إلى المدينة بعد البيعة الثانية أشرقت المدينة بنور الحق وانتشرت

فيها مبادىء الإسلام وأصبحت مكانا مناسبا طيبا يأمن فيه المسلمون على أنفسهم من أذى المعتدين وطغيان الظالمين ، أما مكة فقد اشتد فيها الأذى بالمسلمين والتضييق عليهم حتى أصبح عيشهم فيها جحيما لا يطاق ، ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسللون ويخرجون من مكة فى ظلام الكتمان والخفاء يحذرون قريشا ويخشون خطرها ويرجون ألا تحول بينهم وبين الانتقال من هذا الوسط الخبيث وتلك البيئة الفاسدة إلى جو المدينة الطاهر الجميل . وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة رضى الله عنهما ، ثم تتابع المهاجرون بعد أبى سلمة فرارا بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بنفوسهم ، و لم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلى وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم أحوالهم من الهجرة . وقد كان بقاء أبى بكر وعلىّ بأمر رسول الله ﷺ ، ذلك أن أبا بكر أراد الهجرة فقال له الرسول ﷺ : "على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى" . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك يا رسول الله بأبى أنت ؟ [1] قال : "نعم" فحبس أبو بكر نفسه انتظارا لرسول الله ﷺ ليكون فى شرف صحبته وجهز راحلتين عنده استعدادا لذلك اليوم الموعود . ولا شك أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة كانت مبعث سعادة نفسية كبرى لهم ، لأنهم تنفسوا الصعداء وشعروا بالحرية التى لم يكونوا يألفونها ، وأخذوا ينشرون دين الله فى جو طليق بعيد عن الضغط والإرهاق والظلم والعدوان .

كما كانت ضربة قاضية على المشركين فى مكة إذ خاب أملهم وأفلت المسلمون من قبضتهم وأصبحوا يتوقعون خطرا لا ريب فيه .

الهجـــرة النبويـــة

تآمر قريش على الرسول فى دار الندوة :

كانت دار قصى بن كلاب [2] هى ندوة قريش يجتمعون فيها للنظر فيما يعنيهم من الأمور وما يصادفهم من المشكلات ، ولا شك أن أمر النبى محمد بن عبد الله ﷺ قد أصبح شغلهم الشاغل

---

[1] بأبى أنت : أى أفديك بأبى .

[2] قصى بن كلاب : هو الجد الرابع للرسول ﷺ .

ومشكلتهم الكبرى ، وعلى الأخص بعد ما تم من بيعتى العقبة وظهور الإسلام فى المدينة . ومن أجل ذلك فإن قريشا قد اجتمعوا بدار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون بمحمد بن عبد الله بعد أن عظم أمره واشتد خطره .

قال قائل منهم : نخرجه من أرضنا ، وننفيه إلى مكان بعيد كى نستريح منه ، فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا : إذا خرج إلى مكان آخر اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه . وقال آخر : نوثقه [1] ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فرفض هذا الرأى كذلك ، لأنهم قالوا : لئن حبستموه كما تقولون ليظهرن أمره وليبلغن أصحابه وليوشك هؤلاء أن يثبوا عليكم [2] ليخلصوا محمدا من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . وأخيرا قال أبو جهل عمرو بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل واحد منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلا تقدر بنو هاشم على أخذ ثأره ويرضون بالدية فنعطيها لهم . وقد وقع هذا الرأى فى نفوسهم موقع الرضا والقبول فوافقوا عليه وتهيئوا للإسراع فى تنفيذه . وهذا هو مكرهم ، ولكن الله الذى يكتب ما يبيتون ويعلم ما يفعلون لم يتخل عن رسوله ، فأوحى إليه بما دبره له الأعداء فى ندوتهم ، وأمره بالهجرة من مكة إلى المدينة :

" وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ " . سورة التوبة آية ٣٢ .

" وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ " . سورة الأنفال آية ٣٠ [3] .

---

[1] أى نقيده .

[2] أى أن يهجموا عليكم .

[3] يثبتوك : أى يقيدوك أو يحبسوك .

أسباب الهجرة :

مما تقدم يتبين لنا أن أسباب الهجرة تتلخص فيما يلى :

١- شدة إيذاء المشركين من قريش للرسول ﷺ وللمسلمين ، وقد بلغ هذا الأذى نهايته فى الحقبة الأخيرة أى بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها ووفاة أبى طالب عم الرسول ﷺ .

٢- بيعتا العقبة : وفى هاتين البيعتين وضح للرسول ﷺ أن الأوس والخزرج مخلصون لله وللإسلام ، وأنهم سيدافعون عنه وينصرونه وأن المدينة قد أصبحت بعد إسلام الكثيرين من الأوس والخزرج مكانا طيبا يمكن أن تنمو فيه الدعوة الإسلامية وتترعرع .

٣- المؤامرة الكبرى : وهى تلك المؤامرة التى اتفق المشركون فيها على قتل رسول الله ﷺ والتخلص منه ليخلوا لهم الجو ويرجع المجد والسلطان لآلهتهم المزعومة ، وعقائدهم الفاسدة .

كيف تمت هجرة الرسول ﷺ ؟

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : " كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسوله ﷺ فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة [1] فى ساعة كان لا يأتى فيها ، قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ فى هذه الساعة إلا لأمر حدث قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر . فقال رسول الله ﷺ : " أخرج عنى من عندك" ، قال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى؟ قال : إن الله أذن لى فى الخروج والهجرة قالت : قال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله : قال الصحبة . قالت فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى . وقد بكى أبو بكر رضى الله عنه من فرط السرور ، لأنه أدرك مدى النعمة التى من الله بها عليه إذ شرفه بصحبة الرسول ﷺ فى هذا الوقت العصيب ، وفى تلك الرحلة الخالدة التى ستكون حدا فاصلا بين الحق والباطل وسيتقرر

---

[1] أى وقت شدة الحر بين الظهر والعصر .

بها مصير الإسلام والمسلمين . وكان أبو بكر قد جهز راحلتين له وللرسول ﷺ ثم استأجر دليلا خبيرا بطرق الصحراء ، اسمه عبد الله بن أريقط ، وعلى الرغم من أن هذا الرجل كان كافرا إلا أنهما وثقا فى أمانته وإخلاصه فوعداه غار ثور[1] بعد ثلاث ليال . وكانت الليلة التى خرج فيها رسول الله ﷺ من مكة فى العشر الأواخر من شهر صفر ، وفى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية وكان المشركون قد ترصدوا للرسول ﷺ فى تلك الليلة وأحاطوا بداره لكى ينفذوا مؤامرتهم الغادرة . وقد أمر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يبيت فى مكانه ، وسجَّاه[2] ببردته ، فكان المشركون إذا نظروا من ثقب الباب وجدوا شبحا نائما وعليه بردة الرسول فيعتقدون أنه محمد فيطمئنون ثم خرج النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه على المشركين وهو يقرأ قول الله تعالى : " وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ " . سورة يس آية ٩ . فألقى الله النوم عليهم فلم يره أحد منهم ، ثم تقابل الرسول مع أبى بكر وسارا حتى بلغا غار ثور فاختبآ فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب عنهما وتيأس قريش من مطاردتهما .

فى غار ثور :

وصل رسول الله ﷺ إلى غار ثور ومعه صاحبه الوفى الأمين أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد سبق أبو بكر رسول الله ﷺ إلى داخل الغار ليستبرئه[3] فلما اطمأن إلى سلامته من الهوام والحشرات نادى الرسول ﷺ بالدخول ومكثا فى ذلك الغار الموحش ثلاث ليال . وكان عبد الله بن أبى بكر قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبى إلى غار ثور . فكان إذا جن الليل ينطلق إلى الغار ، فيقص على رسول الله وعلى أبيه ما رآه من مشركى قريش وما سمع من تدبيرهم ثم يأتى عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بأغنامه ، فينال الرسول وأبو بكر من ألبانها ولحومها ما يشاءان ثم يعود عبد الله بن أبى بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفى[4] على أثره ويعود اللاجئان إلى عزلتهما بالغار يؤنسهما الإيمان وتحيط بهما عناية الرحمن .

---

[1] هو غار من أعلى جبل ثور بأسفل مكة .
[2] أى غطاه .
[3] أى ليختبره .
[4] أى ليغطى على أثره حتى لا يعرف .

مطاردة المشركين للرسول ﷺ :

وقد فزع مشركو قريش لهجرة رسول الله ﷺ وخروجه من مكة أشد الفزع ، فطاردوه فى كل مكان ، وقعدوا له كل مرصد ، وتتبعوا آثاره وآثار صاحبه حتى انتهى بهم المطاف إلى مقربة من غار ثور وقد ساورهم الشك فى أن يكون محمد وصاحبه قد لجئا إلى ذلك الغار ، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتساءلون ، وكان على مقربة من الغار راع ، فلما رآه المشركون سألوه : هل رأيت محمدا وأبا بكر؟ وهل تعرف أين ذهبا ؟ وأجاب الراعى : قد يكونان بالغار ، وإن لم أر أحدا أمَّه [1]. وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر هذا الحديث وسمعا وقع أقدام المشركين وهم يتقدمون نحو الغار ، فاستولى الخوف الشديد على أبى بكر الصديق حتى تصبب عرقا وقال يا رسول الله : لو نظر أحدهم إلى موقع قدمه لرءانا . ولكن الرسول كان يطمئنه ويقول له : (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا) ثم تقدم واحد منهم نحو الغار. ودار حوله وأمعن النظر فيه فلم يلبث أن عاد أدراجه وسأله أصحابه : ماذا رأيت بالغار؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، فاعتقد المشركون أن الغار مهجور ورجعوا خائبين . وهكذا تتجلى عناية الله ورعايته للرسول فى كل خطوة من خطواته وفى ذلك يقول الله عز وجل : " إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ " . سورة التوبة آية ٤٠ .

فى الطريق إلى المدينة :

وخرج الرسول ﷺ وصاحبه من الغار بعد ثلاثة أيام وكان الدليل عبد الله بن أريقط فى انتظارهم ، فسار بهم من طريق غير مألوف حتى يضلل الأعداء ، ومر على أمكنة يصعب فيها السير ، ولكنه اجتازها لبعدها عن الطريق المعروف فمر بعسفان ، وسميت عسفان لتعسف السير فيها ،

---

[1] قصده .

ومر بالجداجد وهو مكان كثير الصخور ، ومر بالعرج وهو مكان ينعرج فيه الطريق ، وهكذا حتى وصل إلى قباء بعد رحلة فى صحراء الجزيرة العربية استمرت اثنى عشر يوما لقيا خلالها من عناء السفر ووحشة الطريق ما ينوء بالأبطال .

" فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ " . آل عمران آية ١٤٦.

وقد أقام الرسول ﷺ أربعة أيام فى قباء وفيها أسس مسجدها المبارك الذى وصفه الله عز وجل بقوله : " لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ " . سورة التوبة آية ١٠٨.

ثم غادر رسول الله ﷺ قباء واتجه إلى حيث كان الأوس والخزرج وهم الأنصار . يحيطون به عن يمين ويسار ، وقد تقلدوا سيوفهم وامتلأت نفوسهم بالبشر والسرور ، فكانت لحظات خالدة فى تاريخ المدينة . وكان يوما عظيما فى تاريخ الإسلام ، وخرج النساء والصبيان فى جو من النشوة والفرح يرددون فيه هذا النشيد الجميل :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ثم صار فى المدينة فى موكب من النور ، وكلما مر الرسول ﷺ على دار من دور الأنصار دعاه أهلها للنزول عندهم وأخذوا بزمام ناقته ، فيقول لهم الرسول ﷺ : " دعوها فإنها مأمورة" ولم تزل سائرة حتى بركت فى محلة [1] من محلات أخواله بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى فقال رسول الله ﷺ : "ههنا المنزل إن شاء الله" ، " وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ " . سورة المؤمنون آية ٢٩ .

فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه فى منزله وخرجت ولائد من بنى النجار يقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

---

[1] فى مكان .

فقال عليه الصلاة والسلام : " أتحبنى ؟ فقلن نعم . فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكن" واختار عليه الصلاة والسلام النزول فى الدور الأسفل من بيت أبى أيوب ليكون أريح لزائريه ، ولكن أبا أيوب رضى الله عنه كره ذلك وأبى إلا أن ينزل الرسول فى الطابق الأعلى إكراما وإعزازا لشأنه . وكان الأنصار يتسابقون فى إكرام الرسول ﷺ فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان [1] الثريد يأكل منها عليه الصلاة والسلام هو وأضيافه من الأنصار والمهاجرين .

تأسيس المسجد بالمدينة

شرع رسول الله ﷺ منذ وصل إلى المدينة فى بناء مسجده فى المكان الذى بركت فيه ناقته ، وكان هذا المكان مربدا [2] للتمر مملوكا لغلامين يتيمين فى المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين وطلب إليهما المربد ليتخذه مسجدا وتحدث معهما فى شرائه ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة ولكنه ابتاعه [3] منهما ، وكان فيه قبور المشركين وبعض حفر ونخل ، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت ، وبالحفر فسويت ، وبالنخل فقطع ثم أمر بالبناء وكان بناؤه باللبن [4] ولكن عضادتى [5] الباب كانتا من الحجارة ، وكان سقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل ، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا القليل وقد اشترك رسول الله ﷺ مع أصحابه فى حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم ، وكانوا يروحون على أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء فيرددون هذا الغناء :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وقد ضاعف من حماس الصحابة فى العمل أنهم رأوا رسول الله ﷺ يعمل بنفسه كواحد منهم ويكره أن يتميز عليهم فارتجز بعضهم هذا البيت :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وهكذا تم بناء المسجد فى جو يملؤه الإيمان وتشيع فيه الأخوة والمساواة وكان بناء متواضعا بسيطا ، لأن الإسلام لا يعبأ بالمظاهر الكاذبة .

---

[1] الجفنة : القصعة الكبيرة .
[2] المربد : هو البيدر .
[3] ابتاعه : اشتراه .
[4] اللبن : الطوب الأخضر .
[5] عضادتى : جانبى الباب .

الحكمة فى أن بناء المسجد كان أول عمل للرسول فى المدينة :

وكان هذا العمل الجليل وهو بناء المسجد أول أعمال الرسول ﷺ بالمدينة ، وذلك أن المسجد هو مكان الصلة بين العبد وربه ، وصلة العبد بربه هى أهم المقاصد وأسمى الغايات ، وهى الأساس السليم الذى تقوم عليه العلاقة بين الأفراد والجماعات ، وكذلك لم يكن المسجد موطنا للعبادة فحسب ولكنه كان محكمة للقضاء بما أنزل الله ، ونزلا لاستقبال سفراء القبائل ووفود العرب والتشاور فى مهام الأمور .

والأحاديث الواردة فى فضل المسجد النبوى كثيرة . فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَة مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِد الْحَرَامِ ، وَمَسْجِد بَيْت الْمَقْدِسِ " . وجاء فى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال : " صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْف صَلاَة فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " . وثبت كذلك فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : " مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي " .

ثم بنى بجانب المسجد حجرتين إحداهما لسودة بنت زمعة . والأخرى لعائشة بنت أبى بكر ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجا غيرهما إذ ذاك . وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه ، ثم صارت الحجرات تبنى كلما تزوج الرسول على عدد زوجاته . [1]

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين بعد أن تركوا وطنهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم موقفا دقيقا يتطلب الإخلاص والتضامن ويقتضى أن يسود بينهم وبين إخوانهم

[1] ذكر أبو القاسم السهلى فى كتابه الروض الأنف ، أن بيوت الرسول ﷺ كانت تسعا بعضها من جريد مطلى بالطين وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة موضوعة بعضها فوق بعض ومسقفة بالجريد أيضا وكانت حجرته عليه الصلاة والسلام مكسية من شعر مربوطة فى خشب عرعر . ولما توفى جميع زوجات الرسول ﷺ خلطت البيوت والحجرات بالمسجد ، وذلك فى عهد عبد الملك بن مروان ، فلما ورد كتابه بذلك ضج أهل المدينة بالبكاء كيوم وفاته عليه الصلاة والسلام .

الأنصار. وكان الأنصار وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ولا غرو فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين وقدروا ظروفهم العصيبة فآووهم ونصروهم وضربوا فى الإخلاص لهم والتفانى فى خدمتهم أروع الأمثال ، حتى لقد وصفهم الله عز وجل بذلك الوصف الرائع حيث يقول سبحانه : " وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ " سورة الحشر آية ٩ [١] . أى يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم مهما كان فقرهم ومهما اشتدت حاجتهم . وكانت سياسة الرسول ﷺ فى هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد ، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم فربط بينهم برباط متين ، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين ، وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب [٢] فكان أبو بكر الصديق أخا لخارجة بن زهير (الأنصارى) وكان عمر بن الخطاب أخا لعتبان بن مالك (الأنصارى) وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح أخا لسعد بن معاذ (الأنصارى) وكان عبد الرحمن بن عوف أخا لسعد بن الربيع (الأنصارى) وكان عثمان بن عفان أخا لأوس بن ثابت (الأنصارى) وهكذا أصبح المهاجرون والأنصار بنعمة الله إخوانا . وقد أظهر الأنصار من الكرم والتسامح مع إخوانهم المهاجرين ما خفف عنهم آلام الغربة وعوضهم عن فراق الأهل والعشيرة . حتى ليروى أن سعد بن الربيع الأنصارى عرض على أخيه عبد الرحمن بن عوف وكان لا يملك بيثرب شيئا أن يشاطره [٣] ماله ، فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق ، وبدأ يبيع الزبد والجبن فى سوق المدينة فنما ماله واتسعت ثروته وأصبح له قوافل تجارية عظيمة ، وصنع غير عبد الرحمن من المهاجرين الذين لهم خبرة بالتجارة كما صنع عبد الرحمن فيسر الله عليهم وبارك لهم . أما المهاجرون الذين لم تكن لهم دراية بالتجارة فقد عملوا فى أراضى الأنصار ، واشتغلوا بالزراعة بطريق المزارعة مع ملاك

---

[١] الخصاصة : الفقر .

[٢] كان يترتب على هذه الأخوة أن يتوارث الأخوان كالنسب إلى أن نزلت آية "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض" فاقتصر التوارث على الأخوة من النسب .

[٣] شاطره ماله : قاسمه إياه مناصفة .

الأرض وكانوا يلقون كثيرا من الشدة والتعب فى حياتهم ولكن يأبون أن يكونوا كلا [1] وعالة على إخوانهم الأنصار مهما كلفهم ذلك من جهد وآلام .

المعاهدات بين الرسول واليهود

كانت المؤاخاة التى عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى المدينة أساسا لتقوية المسلمين وتوكيدا لوحدتهم وألفتهم ، وضمانا لحياة كريمة صافية وعيشة راضية .

وكان اليهود يقيمون بجوار المسلمين فى المدينة وهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة [2] وكان هؤلاء اليهود أعداء الأوس والخزرج (الأنصار) قبل أن يدخلوا الإسلام ، فلما دخلوا فى الإسلام قوى أمرهم بمجىء إخوانهم المهاجرين إليهم وازدادت عداوتهم وحقدهم عليهم قال تعالى : " لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ " سورة المائدة آية ٨٢ . فكان من سياسة الرسول ﷺ وحسن تدبيره أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمودة ويبسط لهم يد الأخوة ، ويتفق معهم على التضامن والتعاون حتى تكون المدينة كلها صفا واحدا وقوة واحدة ، وحتى لا يطمع فى المدينة طامع وينال منها عدو . وقد كتب الرسول ﷺ معاهدة بين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم وحقوق اليهود وواجباتهم ، وكان أساس هذه المعاهدة الأخوة فى السلم ، والدفاع عن المدينة وقت الحرب ، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما ، وقد جاء فى هذه المعاهدة : (أن اليهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ومن ظلم أو أثم منهم فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة [3].

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأن ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن

---

[1] الكل : الثقل ، والعالة بهذا المعنى أيضا .

[2] كان يهود بنى قينقاع يقيمون فى المدينة ، وكان يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة على مقربة منهما .

[3] أهل هذه الصحيفة ، أى أصحاب هذه المعاهدة وهم المسلمون واليهود .

بر واتقى) . وقد كتب رسول الله ﷺ بعد هذه المعاهدة معاهدات خاصة مع اليهود تتجه إلى هذه الأهداف وتدور حول تلك الأغراض وقد دلت هذه المعاهدات الجليلة على سمو تفكير الرسول ﷺ وحسن سياسته فهى تقرر : حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة ، وتحريم الجرائم وتحارب الظلم والإثم ، قد وضعها رسول الله ﷺ منذ قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكنها لا تزال إلى هذا العصر الذى نعيش فيه نبراسا يهتدى به الساسة والقادة إذا اضطربت الأمور وأظلمت السبل . ولا شك أن هذه المعاهدات الخالدة كانت ذات أثر كبير فى تقوية عزائم المسلمين وحفظ المدينة من مطامع المشركين المعتدين . ولولا أن اليهود غدروا وخانوا ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وبدءوا بالعدوان على المسلمين لما وقف رسول الله والمسلمون منهم موقف العداء ، ولظلت المدينة يغمرها الوئام والصفاء ولكن اليهود غدروا وخانوا وبدءوا بالعدوان فرد الرسول والمسلمون على إساءتهم وظلمهم بما جعلهم عبرة أمام القرون والأجيال ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين .

مشروعية القتال

فى مستهل القرن السابع الميلادى ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فأشرق على العالم بمبادئه الفاضلة التى تدعوا إلى الخير وتهدى للتى هى أقوم والتى تنظم العلاقة بين الأفراد والجماعات وبين الأمم والشعوب ، والتى تصف مشاكل المجتمع وأدواءه ثم تقدم فى يسر وسهولة أنجع الدواء لهذه المشاكل والأدواء . وكان العالم فى ذلك الوقت يموج بالفتن ، وتسود فيه نزعات خبيثة تمكن للشر والفساد ، ونحل باطلة قوامها الزور والبهتان ، والظلم والطغيان ، ولم يكن العرب حينئذ أقرب إلى الخير من غيرهم ، بل سادت فيهم العادات الضارة الهدامة ، ومالوا عن دين إبراهيم الحنيف إلى عبادة الأصنام والأوثان ، فكان من الطبيعى أن تصطدم مبادئ الإسلام بتلك العقائد المائلة والعادات الباطلة ، من أجل ذلك فزعت القبائل العربية كل الفزع ، وأخذت تحارب الدعوة الإسلامية وتقاومها بكل الوسائل فقعدت لها كل مرصد وشهرت فى وجهها كل سلاح .

وفى وسط هذه المحنة المظلمة ، كان الرسول الكريم يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقابل هذا العنف والطغيان بالرضا والإيمان والصبر الجميل ، حتى كان يأتى له المسلمون وهم

جرحى ومصابون يشكون إليه ما أصابهم فيقول : " اصبروا فإنى لم أومر بقتال " وهكذا توالت البلايا والمحن على رسول الله وعلى المسلمين ، حتى كانت المؤامرة الكبرى وأراد المشركون قتل الرسول ﷺ ، فأوحى الله إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة ، فخرج من مكة أسفا حزينا لأنها وطنه وأحب بلاد الله إليه ، وأحب بلاد الله إلى الله ، وأخرج المسلمون كذلك من مكة وهى وطنهم وتركوا ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ومن كل ما تقدم نرى أن الرسول والمسلمين لم يبدأوا أحدا بالقتال بل كان المشركون هم البادئين بالظلم والعدوان ، ومن أجل ذلك شرع القتال فى الإسلام ، وأذن الله للمسلمين بالجهاد فى سبيله ردا لما لحقهم من ظلم وما أصابهم من شر ، فكانت غزوة بدر وهى التى نزل فيها قوله تعالى : " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ " . سورة الحج .

يعنى أذن الله للمسلمين الذين يقاتلون أى يقاتلهم الكفار أذن لهم فى القتال بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق . ثم أمر الله المسلمين بالقتال إذا هوجموا من عدوهم فقال تعالى : " وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ " سورة البقرة آية ١٩٠ .

ثم أمروا بالقتال لتأمين الدعوة وإظهار قوة المسلمين حتى يدخل الناس فى دين الله دون خوف من اضطهاد أو فتنة ، وحتى يطمئن الضعفاء من المسلمين على أنفسهم وأموالهم .

" وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ " . سورة الأنفال آية ٣٩ .

ولما اجتمع الأحزاب والمشركون كافة على قتال المسلمين أذن الله للمسلمين بقتال المشركين كافة فنزل قوله تعالى : " وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ " .سورة التوبة آية ٣٦ .

وبهذا يتبين لنا أن القتال قد شرع فى الإسلام للأسباب الآتية :

١- لرد الظلم والعدوان الذى أصاب المسلمين .

٢- لتأمين الدعوة الإسلامية وتدعيم هيبتها حتى تلقى الرعب فى قلوب الأعداء ويدخل فى دين الله من يشاء ، وعلى هذا الأساس كانت غزوات الرسول ﷺ جميعها ، فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى سار خلفاؤه على ذلك المنهج القويم ، فكانت الحروب فى البلاد التى فتحها المسلمون للجهاد فى سبيل الله ولتأمين الدعوة الإسلامية وتبليغها للناس وهم فى جو آمن وبيئة صالحة . وقد أخذت تلك الدعوة الكريمة بحمد الله مجراها فى قلوب الناس وانسابت بين الأمم تحيى الموات وتؤتى أطيب الثمرات .

غزوات النبى ﷺ

كان المهاجرون من المسلمين يحنون دائما إلى مكة ويتطلعون إلى قريش التى فرقت بينهم وبين أهلها وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ، فتثور نفوسهم ألما لهذا الحق المسلوب والكرامة المضيعة ، ويودون أن تتهيأ لهم الفرصة ليغسلوا عن أنفسهم ما علق بها من عار وصغار . وفى هذه الفترة كانت الأوضاع قد استقرت فى المدينة على أساس الأخوة والتعاون .. فالأنصار من الأوس والخزرج يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . والمهاجرون يعيشون فى ظل وارف من إخلاص إخوانهم الأنصار فيعوضهم ذلك عن الكثير مما فقدوه .. والمسلمون جميعا يشعرون بالقوة بعد المعاهدات التى تمت بينهم وبين اليهود ، وهى تلك التى تقوم على الأخوة فى السلم . والدفاع عن المدينة فى وقت الحرب والتضامن التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما . ومن أجل ذلك بدأ المسلمون وقد شعروا بالقوة يفكرون فى رد الظلم الذى أصابهم والعدوان الذى وقع عليهم ، فجاء العدل الإلهى الذى استبشر به المسلمون ونزل قوله تعالى : " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ " . سورة الحج .

فكان ذلك أمرا من الله لرسوله بالقتال ، وبدأت غزوات النبى ﷺ للكفار والمشركين .

غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة وهى أول معركة كبيرة فى الإسلام ، قامت بين الحق والباطل ، فانتصر فيها الحق وأينع وأثمر قال تعالى : " وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ". سورة الأنفال آية ٧ .

علم رسول الله ﷺ أن قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام فى طريقها إلى مكة . وكان على رأسها أبو سفيان ، فأراد رسول الله ﷺ أن يعترض طريق هذه القافلة ليفجع قريشا فى أموالها كما فجعت قريش المسلمين من قبل فى أموالهم وأنفسهم ، وخرج الرسول فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أصحابه فى اليوم الثامن من رمضان ومعهم سبعون بعيرا وفرسا . وحينما علم أبو سفيان بخروج الرسول وأصحابه ، فزع كل الفزع وأرسل إلى قريش يطلب الغوث والنجدة ، فثار القرشيون ثورة عنيفة ونفروا سراعا وعلى رأسهم سادتهم وكبراؤهم ، وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلا ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير . ومضى مشركو قريش فى طريقهم لنجدة أبى سفيان وتخليص أموالهم من قبضة المسلمين ، وبينما هم فى الطريق وصلهم رسول من أبى سفيان يخبرهم بنجاته هو وقافلته ويطلب إليهم الرجوع ، ولكن أبا جهل تحمس للحرب والقتال وأبى إلا أن يتقدم حتى يصل إلى بدر [1] وصاح قائلا : والله لا نرجع حتى نصل إلى بدر ونقيم عليها ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان [2] وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، وتردد القوم بين اتباع أبى جهل مخافة أن يتهموا بالجبن والخور ، وبين الرجوع إلى مكة مادامت العير قد نجت ، وأموالهم قد سلمت ، فلم يرجع إلا بنو زهرة الذين اتبعوا مشورة الأخنس بن شريق وكان فيهم سيدا مطاعا ، واتبعت سائر قريش رأى أبى جهل ، ومضوا فى طريقهم حتى وصلوا إلى وادى بدر ونزلوا بالعدوة القصوى عن المدينة .

---

[1] مكان معروف فى الجنوب الغربى من المدينة وكان للعرب فيه سوق تعقد كل عام ثمانية أيام .

[2] القيان : العبيد .

موقف المسلمين بعد نجاة العير :

وعلم الرسول ﷺ والمسلمون أن العير قد نجت وأفلتت من أيديهم وأن قريشا قد خرجت بخيلها ورجلها واتخذت الطريق إلى بدر لتحدى المسلمين قريبا من ديارهم ، وتلقى فى قلوبهم الرعب ، فجمع الرسول أصحابه واستشارهم وقال لهم : " إن الله وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم" [1] وهنا يتجلى إخلاص المسلمين وتظهر نيتهم الصادقة وإيمانهم الكامل ، فقد قام المقداد بن عمرو رضى الله عنه وقال "يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون" وقال سعد بن معاذ سيد الأنصار : " لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ولا نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصبر على الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله " . ولقد أشرق وجه الرسول ﷺ بالسرور حينما رأى من أصحابه هذا التضامن والإيمان الكامل وقال لهم : " أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم " ، ثم نزل المسلمون بعدوة الوادى الدنيا أى القريبة من المدينة .

رأى الحباب بن المنذر فى مكان المسلمين :

وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليما بهذا المكان ، فلما رأى حيث نزل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة" ، فقال الحباب : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور [2] ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا

---

[1] أى العير أو النفير ، هو ذلك الجيش الذى نفر لقتال المسلمين وقد صدق الله وعده فأفلت العير و لم يفلت النفير بل انتصر المسلمون .

[2] أى نتلف ما وراءه .

يشربون . وحينئذ فكر الرسول ﷺ فاقتنع بهذا الرأى السديد وأعلن أمام المسلمين أنه نزل على رأى الحباب ، وأن فى ذلك الحكمة والصواب . وهكذا كان الرسول يشاور أصحابه عملا بقوله تعالى : " وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ " . سورة آل عمران آية ١٥٩ .

وكان يحترم الرأى الصائب وينفذه ولو تعارض مع رأيه ، و لم يكن من أولئك القادة والرؤساء الذين يعميهم التعصب الممقوت ، ويستبدون بالرأى فينزلقون إلى الشر ، ويجرون وراءهم الأمم والشعوب إلى مهاوى الفناء .

رأى سعد بن معاذ فى مكان الرسول :

ولما نفذوا رأى الحباب ، وبنوا الحوض ، قال سعد بن معاذ : يا نبى الله نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ، ويجاهدون معك . وقد أثنى الرسول صلوات الله وسلامه عليه على سعد ودعا له بخير ثم بنى العريش للنبى حتى يكون فى مأمن من العدو إذا لم يكن النصر فى جانب المسلمين ، وهكذا الإخلاص والإيثار إنما يظهران فى أوقات المحن ، وهكذا الإيمان العميق يتجلى نقاؤه أمام الشدائد ، وبمثل هذا الإخلاص والإيثار والإيمان تفضل الله على المسلمين ونصرهم وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ومن بعد ضعف قوة .

بدء المعركة :

وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان [1] بدأت المعركة بين فئتين : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . وكان الكفار يبلغون ثلاثة أمثال المسلمين ولكن الله أيد المسلمين بإيمانهم وأيدهم بجنوده وملائكته قال تعالى : " إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم

[1] يروى أن هذا هو اليوم نفسه الذى ابتدأ فيه نزول القرآن على رسول الله فى غار حراء ، وبين التاريخين أربع عشرة سنة قمرية .

بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ " . سورة الأنفال .

وحينما حمى وطيس القتال ورأى رسول الله ﷺ كثرة عدد المشركين ظل يهتف من أعماق نفسه قائلا "اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد" وهكذا يمضى الرسول فى ضراعته إلى الله حتى يسقط رداؤه عن منكبه فيرده عليه أبو بكر وهو يقول مشفقا عليه من كثرة الابتهال : يا نبى الله ، بعض مناشدتك ربك [1] فإن الله منجز لك ما وعدك ، ولكن الرسول الكريم يظل فيما هو عليه من ضراعة وابتهال ، مشغولا عن نفسه وعن كل ما حوله بدعاء ذى الجلال حتى أخذته خفقة من نعاس فرأى نصر الله يضىء ويملأ الآفاق ، فاستيقظ فرحا مستبشرا وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول لهم "والذى نفس محمد بيده لا يقاتل اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة" . وقد تراءت الجنة أمام المسلمين حينما سمعوا كلام نبيهم حتى لقد قال عمير بن الحمام وكان فى يده تمرات يأكلها بخ بخ ، أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم ألقى بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه وقاتل فى صبر وإيمان ، حتى قتل ، ثم اشتد القتال فلم تكن إلا ساعة حتى هزم الجمع وولوا الدبر ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين وأسر منهم مثل هذا العدد و لم يستشهد من المسلمين إلا أربعة عشر فحسب قال تعالى : " كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ " . سورة البقرة آية ٢٤٩ .

ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة ومعه أصحابه فرحين بنصر الله وعدله مستبشرين بنعمته وفضله .

أسرى بدر :

ولما دخلوا المدينة استشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فاضرب أعناقهم . وقال أبو بكر :

---

[1] أى ، لم تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر؟

يا رسول الله ، هم أهلك وقومك أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون لنا من هذا الفداء قوة ، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فيكونوا لك عضدا ، فقال رسول الله ﷺ : إن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : " فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ " [1] .

وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال : " رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا " [2].

ثم أخذ الرسول برأى أبى بكر فقبل منهم الفداء وأطلق سراحهم وقد تبين أن الحق فى جانب عمر ، فعاتب الله رسوله على عدم قتلهم ونزل قول الله تعالى : " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ " . سورة الأنفال .

ومعنى ذلك : أن الله ينهى عن اتخاذ الأسرى قبل الإكثار من قتل الكفار ويعيب على من يريد عرض الدنيا وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله بألا يعاقب مجتهد على اجتهاده ما دام القصد خيرا لكان العذاب الأليم .

العبرة من غزوة بدر :

كانت درسا عمليا تجلت فيه ثمرة الإيمان ، فنصر الله المسلمين وهم قلة بإيمانهم وخذل المشركين وهم كثرة لأنهم اتبعوا الشيطان وحادوا عن الإيمان .

جلاء بنى قينقاع

شعر اليهود بعد غزوة بدر بمزيد قوة المسلمين فامتلأت نفوسهم غلا وحقدا وأخذوا يتكلمون فى النبى محمد ﷺ وفى المسلمين ويطعنون عليهم ويتربصون بهم الدوائر . وكان يهود بنى قينقاع فى جوار المسلمين بالمدينة . وكان بينهم وبين المسلمين عهود فنبذوها وبدأوا المسلمين بالشر والعدوان . وذلك أن امرأة من نساء الأنصار قدمت إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية لكى تعرضها على صائغ منهم ، فجلست إلى صائغ فى تلك السوق فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف

[1] سورة إبراهيم آية ٣٦ .

[2] سورة نوح آية ٢٦ .

ثوبـــها بشوكة إلى ظهرها . فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك اليهودى ، وصاحت المرأة صيحة هى مزيج من الحزن والندم والخجل والاستغاثة ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله واجتمعت اليهود على المسلم فقتلوه ، وحينئذ دعا رسول الله ﷺ رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد وطلب إليهم أن يكفوا عن أذى المسلمين ، وأن يحفظوا عهد المودة والسلام ، حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشا فى غزوة بدر ، ولكنهم استخفوا بوعيده وأجابوه قائلين : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، ثم تظاهروا بالعداوة وتحصنوا فى حصونـــهم فأنزل الله تعالى فى سورة آل عمران : " قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ " . ثم سار إليهم الرسول فى نصف شوال من السنة الثانية للهجرة يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة متتالية لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليهم بطعام أحد ، ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركوا الرعب ، سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم فخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الأموال ، فقبل ذلك عليه الصلاة والسلام ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال رحلوا بعدها إلى أذرعات بالشام . وهكذا كانت نـــهاية يهود بنى قينقاع ، وتلك نـــهاية الخيانة فى كل عصر وحين ، فالخائن لابد أن يفتضح أمره ، وينكشف ستره ويقع فيما دبر من شر وفساد " وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ " .

غـــزوة أحـــــد

تركت هزيمة قريش فى غزوة بدر أثرا أليما فى نفوسهم فأخذوا يعدون العـــدة للانتقـــام مـــن المسلمين ، ولإرجاع هيبتهم بين قبائل العرب ، ولتأمين الطرق لتجارتهم حتى لا يتعـــرض لهـــا المسلمون . وكانت العير التى جاء بـــها أبو سفيان من الشام ، والتى كانت سببا فى غزوة بـــدر

قد ربحت نحوا من خمسين ألف دينار فجمعت كلها وقال أصحابها لأبى سفيان: إن محمد قد قتل خيارنا . وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعدادا لحرب محمد وأصحابه ، وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب ، ثم عبأت قريش قوتها ، وأرسلت إلى قبائل العرب المحالفة لها لتشترك معها وتعينها ، فاجتمع من ذلك كله ثلاثة آلاف رجل ومعهم ما يلزم من العدة والسلاح .

موقف العباس بن عبد المطلب :

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ واقفا على ما تدبره قريش للنبى ، ومطلعا على كل صغيرة وكبيرة من أمرهم ، وكان لا يزال مشركا ولكن عاطفة القرابة جعلته يرسل كتابا إلى النبى ﷺ فى المدينة يخبره فيه بما صنعت قريش ووصل الكتاب إلى النبى ﷺ قبل أن يفاجئه أعداؤه فكان هذا الموقف الكريم عملا جليلا للعباس يضاف إلى أعماله الجليلة السابقة التى قام بها قبل إسلامه حبا فى ابن أخيه محمد ﷺ .

خروج قريش :

وخرجت قريش من مكة فى شوال من السنة الثالثة للهجرة مع حلفائهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، حتى إذا بلغوا الأبواء ومروا بقبر" السيدة آمنة " بنت وهب دفعت الحمية بعض الطائشين منهم إلى التفكير فى نبشه لولا أن العقلاء منهم تداركوا هذا الأمر حتى لا ينبش المسلمون موتاهم إذا تهيأت لهم فرصة الانتقام . ثم تابعت قريش مسيرها حتى نزلت عند بعض سفوح من جبل أحد على بعد خمسة أميال من المدينة .

موقف الرسول والمسلمين :

وعلم الرسول ﷺ بذلك المكان الذى نزل فيه المشركون فجمع الرسول أصحابه واستشارهم وقال : " إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها " فرضى الكبار والشيوخ منهم بهذا الرأى وقال قائلهم : نقيم بالمدينة يا رسول الله ونتركهم فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم فيرجعون خائبين كما جاءوا . ولكن

الشبان وخصوصا من لم يرضوا بهذا الرأى وقالوا : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يروا أنَّا جَبُنَّا عنهم وضَعُفْنَا ، وما زال هؤلاء برسول الله ﷺ حتى اتبع رأيهم . لأنهم الأكثرون عددا والأقوون جلدا [1]. فصلى الجمعة فى اليوم العاشر من شوال وحثهم فى خطبتها على الثبات والصبر ، وقال "لكم النصر ما صبرتم" ثم عقدت الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير ثم سار الجيش وكان عدده يقرب من الألف رجل حتى إذا كان بالشوط ـــ بستان بين جبل أحد والمدينة ـــ رجع عبد الله بن أبى [2] بثلاثمائة من أصحابه وبقى مع الرسول سبعمائة رجل من المؤمنين المخلصين فمضوا فى طريقهم حتى وصلوا إلى الشعب من جبل أحد على مقربة من المشركين ، ثم جعلوا ظهورهم للجبل ووجوههم للمدينة .

بدء المعركة :

كان جيش المشركين يبلغ ثلاثة آلاف ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ وكان جيش المسلمين لا يزيد على سبعمائة ، وقد رتب رسول الله ﷺ الجيش ونظمه تنظيما دقيقا ، ووضع خمسين رجلا من الرماة على شعب الجبل وراء جيش المسلمين وقال لهم "احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل" . ثم التقى الجمعان وبدأ القتال أولا بالمبارزة فكان النصر فى جانب المسلمين ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، وفى كل مرة ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون ، ثم حمى القتال وكان نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالطبول والدفوف ، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وهن يقلن :

ويها بى عبد الدار ويها حماة الأديار ضربا بكل بتار

ويقلن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

---

[1] صبرا .

[2] زعيم المنافقين .

فيشتد حماس الرجال إذا سمعوا نشيد النساء ، ويتذكرون إخوانهم الذين قتلوا فى يوم بدر فتزداد حميتهم وإقبالهم على القتال ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء يقول "اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل حسبى الله ونعم الوكيل" . و لم يكن المسلمون بحاجة إلى من ينشد لهم الأشعار ليدفعهم إلى القتال وإنما كانوا يندفعون بإيمانهم العميق ويقبلون على الموت فى سبيل الله لأن الله وعدهم إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة ، وفى كل منهما خير وسعادة وقد حمل المسلمون على لواء المشركين فكان إذا سقط اللواء من يد واحد أخذه من خلفه ، فيحمل عليه المسلمون فيقتلونه ، فيأخذ اللواء رجل آخر حتى قتل حملة اللواء من المشركين ، ولما لم يقدر أحد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الأسلاب والغنائم .

الرماة يتسببون فى هزيمة المسلمين :

ولما رأى الرماة ــ الذين أوقفهم الرسول فوق الجبل ليحموا ظهور المسلمين ــ أن المسلمين قد بدأوا يجمعون الأسلاب والغنائم ، نسوا أمر الرسول لهم ، فتركوا موقعهم الحصين ونزلوا إلى مكان القتال ليجمعوا ما يستطيعون من تلك الأموال التى خلفها المشركون ، وقد نصحهم رئيسهم عبد الله بن جبير بألا يتركوا مكانهم حرصا على أوامر الرسول ، فلم يسمع إليه إلا نفر دون العشرة . وقد انتهز خالد بن الوليد [1] هذه الفرصة وكان على فرسان مكة فشد برجاله على مكان الرماة فقتل من ثبت منهم وفاجأ المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم فاستولى عليهم الرعب والفزع وسادت الفوضى فى صفوفهم حتى صار يضرب بعضهم بعضا وانعكست الآية ، فبعد أن كان المسلمون يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص إذا بهم الآن يقاتلون مبعثرين متناكرين ، دون رئيس يوجههم وقائد يرعاهم ، وشاع بين الناس أن النبى محمدا صلوات الله عليه قد قتل ، فعظمت البلية بين المسلمين ، وفرح المشركون ، ولكن المسلمين عرفوا بعد ذلك أن الرسول لا يزال حيا فأحاطوا به يدرءون عنه الأذى والعدوان

---

[1] كان خالد فى هذه الغزوة على ميمنة جيش المشركين وقد أسلم سنة ثمان من الهجرة .

ويفتدونه بأنفسهم حتى ضربوا بذلك أروع الأمثال فى الإيمان ، ولكن الرسول على الرغم من ذلك أصيبت رباعيته ، وشج فى وجنته وجرحت شفته ، ودخلت حلقات من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته واستمات المسلمون بعد ذلك فى القتال ولكن دون جدوى فاضطروا إلى الانسحاب والصعود فى الجبل بعد أن قتل منهم سبعون شهيدا وقد قتل فى الغزوة أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ومثلت به هند زوج أبى سفيان بعد قتله فبقرت بطنه وأخرجت كبده فمضغتها بأسنانها ثم لفظتها ، وقد حزن الرسول على عمه أشد الحزن وسجاه ببردته وصلى عليه ، ثم دفن سائر الشهداء حيث لقوا مصرعهم ، وانصرف المسلمون إلى المدينة يحز فى نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر ، وقد نزل فى هذه الغزوة قوله تعالى : " وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ " . سورة النحل آية ١٢٧ .

كانت هذه الغزوة درسا علم الناس أمرين :

أولهما : طاعة الجند لقادتهم هى سبب النصر ، وذلك أن الرماة من المسلمين لما خالفوا أمر الرسول وتركوا مكانهم اضطرب أمرهم بعد أن كان النصر حليفهم .

ثانيهما : أن حب الناس للدنيا هو أساس الشر والبلاء ، ولولا حب الرماة للدنيا لما تركوا مكانهم ، ولما أصيب المسلمون بهذا البلاء الكبير .

جلاء بنى النضير
فى السنة الرابعة من الهجرة

كان يهود بنى النضير يقيمون بجوار المدينة إذ كانت ديارهم على مقربة من قباء وكان بينهم وبين المسلمين عهود كالتى كانت بين بنى قينقاع وبين المسلمين . ولكن بنى النضير لم يوفوا بتلك العهود ، ولا عجب فالغدر شيمة اليهود فبينما رسول الله ﷺ وبعض أصحابه فى ديار بنى النضير إذ تآمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ واحد منهم صخرة ويلقيها عليه وهو مستند إلى جدار فى محلتهم ، ولكن الله ألهم رسوله بما يريد هؤلاء من بغى وعدوان فقام صلوات الله

وسلامه عليه ورجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، وأحبط الله مؤامرات بنى النضير ورد كيدهم عن رسول الكريم . وحينئذ أرسل الرسول إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، بهذا آجلتكم عشرا فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . وقد فوجئ بنو النضير بهذا الإنذار . وتملكهم الأسى والحيرة ولكنهم لم يجدوا بدا من التسليم فبدأوا يتهيأون للرحيل .

موقف المنافقين من بنى النضير :

ولكن جماعة من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى أزعجتهم قوة الرسول ﷺ فأرسلوا إلى بنى النضير يقولون لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإننا سننصركم وندافع عنكم حتى نموت أو نخرج معكم . فلما وصلتهم هذه الرسالة تغير اتجاههم وتشبثوا بالبقاء أملا فى مساعدة هؤلاء المنافقين وانقضت الأيام العشرة و لم يخرجوا من ديارهم .

حصار الرسول لبنى النضير :

ولما انقضت الأيام العشرة و لم يخرج بنو النضير من ديارهم أمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم . فلما اجتمع المسلمون وأعدوا عدتهم خرج بهم رسول الله ﷺ ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . أما بنو النضير فتحصنوا فى حصونهم وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ست ليال ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون ذلك أدعى إلى إضعاف حماسهم للقتال ، فجزع اليهود ونادوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ، ونسوا أن ذلك العمل بأمر الله ليذل به اليهود وهم أحرص الناس على المال وفى ذلك نزل قول الله تعالى : " مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ " . سورة الحشر آية ٥ .

ولما يئس اليهود من نصرة عبد الله بن أبى و لم يتقدم أحد لنجدتهم سألوا رسول الله ﷺ أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذريتهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم الرسول ﷺ على أن يخرجوا منها ، لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، وقد نزل بعضهم بخيبر وسار الباقون إلى أذرعات بالشام . وقد ترك بنو النضير وراءهم

خمسين درعا وثلاثمائة وأربعين سيفا ، وأما الأرض فقد استبقى الرسول ﷺ قسما منها جعلت غلته للفقراء والمساكين ، وأعطى القسم الباقى للمهاجرين الأوليين ، فأغناهم الله به عن معونة إخوانهم الأنصار ، وعاش الجميع فى رخاء ويسار .

العبرة من جلاء بنى النضير :

لقى اليهود من بنى النضير جزاء خيانتهم فأذاقهم الله البأساء والضراء وكتب عليهم الجلاء ، وأصبحوا أمام الأجيال المتتابعة مثلا سيئا للذلة والعار ، وأورث الله المسلمين أرضهم وديارهم والعاقبة للمتقين .

غزوة الخندق
فى السنة الخامسة من الهجرة

سببها :

كان خروج بنى النضير من ديارهم وجلاؤهم عن أرضهم صدمة عنيفة لم يذهب أثرها من نفوسهم فلم يهدأ لهم بال وأخذوا يتفننون فى الكيد للمسلمين ، فذهب وفد من كبرائهم وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب الرسول والمسلمين ، فوجدوا منهم قبولا واستعدادا . ثم انطلقوا بعد ذلك إلى قبائل غطفان وبنى مرة وبنى أسد وغيرهم من القبائل الوثنية التى ترى فى محمد خصمها الأشد وعدوها الألد ، ومازالوا بهم يحرضونهم على غزوه حتى استجابوا لهم وأعدوا العدة لذلك ، وبلغ عددهم عشرة آلاف وقائدهم العام أبو سفيان .

حفر الخندق أمام المدينة :

وقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه ماذا يصنع أمام هذا الجيش الجرار أيمكث بالمدينة أم يخرج للقائه ؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه لكنه من فنون الفرس فى حروبهم ، فأمر عليه الصلاة والسلام بحفره فى شمال المدينة من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية . وهذه هى الجهة التى كان يستطيع الأعداء غزو المدينة منها ، وقد قاسى المسلمون كثيرا من المتاعب فى حفر هذا الخندق واشترك الرسول عليه الصلاة والسلام معهم فكان يحمل التراب وينقله وهو يتمثل بقول القائل :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــدقنا ولا صليـــــنا
فأنزلن سكينة عـــلينـــا وثبت الأقدام إن لاقيـــنـــــا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتـــنة أبـــيـــنـــا

وكان دائم التشجيع للمسلمين . فإذا رأى ما حل بـــهم من التعب والجوع يدعو لهم ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصـــار والمهـــاجـــرة

فيرد عليه المسلمون قائلين :

نحن الذين بايعـــوا محمـــدا على الجهاد ما بـــقينا أبـــــدا

وهكذا تم حفر الخندق فى جو من الأخوة والتعاون والإخلاص لله ورسوله .. ثم تجهز الجـــيش للقاء أعدائه وكانت عدته ثلاثة آلاف .

وصول المشركين إلى الخندق :

وصل المشركون بجموعهم الحاشدة فراعهم هذا الخندق العجيب ، ووقفوا أمامـــه مـــتحيرين وأخذوا يتطلعون إلى المسلمين ويترامون معهم بالنبال والخندق يحول بين الفريقين كالحصن المتين ، وجعل الرسول ﷺ على الخندق حراسا حتى لا يقتحمه المشركون بالليل . وكـــان الرســـول يقوم بنفسه على حراسة بعض المواقع على الرغم من البرد الشديد فلم يتركوا فرصة للمشركين يستطيعون أن ينفذوا منها إليهم .

موقف المنافقين :

كان فى جيش المسلمين جماعة من المنافقين لا يعلمهم الرسول وقد وقـــف هـــؤلاء المنـــافقون كعادتـــهم من المسلمين موقف اللؤم والخيانة وقـــالوا : " مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا " وانسحبوا من صفوف المسلمين قائلين : " إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٌ " ونخاف أن يغير العدو " وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا " .

مؤامرة بنى قريظة على الرسول والمسلمين :

فى هذه المحنة الشديدة التى أصابت المسلمين بتجمع الأحزاب عليهم وانسحاب المنـــافقين مـــن صفوفهم انتهز يهود بنى قريظة ـــ وكانوا يساكنون المسلمين بالمدينة ـــ هذه الفرصة واستجابوا

لتحريض بنى النضير لهم فصمموا على نقض العهود التى بينهم وبين الرسول ﷺ ، وأخذوا يتكلمون بالشر والسوء عن الرسول وعن المسلمين . ومعنى ذلك أنهم بعد أن كانوا سيدافعون عن المدينة مع المسلمين ، أصبحوا عدوا ثالثا مع الأحزاب والمنافقين ، و" هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالاً شَدِيدًا " ، و" زَاغَتِ ٱلأَبۡصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ " وأخذوا يتخبطون فى أودية الظنون ، ولكن عناية الله الذى ينبت الفرج من الضيق جاءت إلى المسلمين من أيسر طريق ، فساق الله إليهم رجلا من غطفان وهو نعيم بن مسعود الأشجعى . وقد استطاع هذا الرجل بحيلته ودهائه أن يغير اتجاه الأحزاب واليهود وأن يوقع بينهم الخلاف والشقاق ويصرف كيدهم عن الرسول والمسلمين .

موقف نعيم بن مسعود الأشجعى :

كان هذا الرجل من قبيلة غطفان ، وكان صديقا لقريش وصديقا لليهود ، وقد شاء الله أن يدخل هذا الرجل فى الإسلام فى الوقت العصيب الذى أحاط الأعداء فيه بالمسلمين ، فجاء إلى الرسول وقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى فمرنى بأمرك حتى أساعدك . فقال ﷺ " أنت رجل واحد ، وماذا عسى أن تفعل ، ولكن خَذِّلْ عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة " . فخرج من عنده وتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين ، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم ، فقال : يا بنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى ، قالوا : نعم ، فقال : لقد رأيتم ما وقع ببنى قينقاع ، وبنى النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم ، وأما أنتم فتساكنون الرجل ــ يريد الرسول ــ ولا طاقة لكم بحربه وحدكم . فأرى ألا تدخلوا فى هذه الحروب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم ، وذلك بأن تأخذوا منهم رهائن عندكم سبعين شريفا منهم ، فاستحسنوا رأيه وأجابوا إلى ذلك . ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى . قالوا : نفعل ، فقال لهم : إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم

معه ، فقالوا له : أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا التى كسرت(يعنى ترجع بنى النضير إلى ديارهم) فرضى بذلك منهم ، وهاهم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا ، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشا ، فأرسل أبو سفيان وفدا لبنى قريظة يدعوهم للقتال غدا ، فأجابوا : إنا لا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم ، فتحققت قريش وغطفان من كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضا . ثم أكمل الله نعمته على المسلمين فأرسل على الأعداء ريحا شديدة باردة فى ليلة مظلمة فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم ، وخاف أن يتفق المسلمون مع بنى قريظة ويهجموا عليهم تلك الليلة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، وهكذا فرق الله الكرب عن المسلمين واستجاب دعاء رسوله حيث كان يقول : "اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم" .

العبرة من غزوة الخندق :

فى هذه الغزوة تجلت نعمة الله على المسلمين ، فجعل لهم من الضيق فرجا ومخرجا ، وفى ذلك يقول الله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ " . سورة الأحزاب آية ٩ .

غزوة بنى قريظة
فى السنة الخامسة للهجرة

كانت هزيمة الأحزاب ورجوعها عن غزو المدينة طعنة قاتلة أصابت يهود بنى قريظة ، ولا غرو فقد عرفت خيانتهم للرسول . وتركهم الأحزاب وحدهم أمام المسلمين وفروا هاربين ، وكان لابد للمسلمين بعد أن كفاهم الله القتال فى غزوة الخندق وهزم الأحزاب أن يطهروا بلادهم من هؤلاء اليهود الخائنين الذين لا عهد لهم ولا ميثاق ، والذين خذلوا المسلمين فى أحرج الأوقات وأعنف الأزمات . ومن أجل ذلك صمم الرسول ﷺ على التخلص من بنى قريظة الذين أصبحوا خطرا يهدد المسلمين فى كل وقت وحين . ولم يكد يرجع الرسول وأصحابه من

الخندق حتى أمره الله فى نفس اليوم أن يغزو بنى قريظة فقال لأصحابه : " لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة " فساروا مسرعين وتبعهم عليه الصلاة والسلام وجعل اللواء لعلى بن أبى طالب ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف . ولما رأى بنو قريظة أن المسلمين أحاطوا بهم تحصنوا بحصونهم فحاصرهم الرسول خمسا وعشرين ليلة حتى رأوا أنفسهم مهددين بالفناء إن لم يحاولوا الصلح مع المسلمين . وقد طلب بنو قريظة أن يتركهم الرسول يرحلون كما رحل بنو النضير على أن يأخذوا ما يستطيعون حمله من الأموال ويتركوا السلاح ، فلم يقبل الرسول منهم ذلك ، بل قال: لابد من الرضا بما يحكم به عليكم خيرا كان أو شرا ، ومعنى ذلك أن الرسول طلب إليهم التسليم دون قيد أو شرط ، فلم يجدوا بدا من التسليم والخضوع .

حكم الله فى بنى قريظة :

أخذت الشفقة ببنى قريظة رجالا من الأوس ، فجاءوا إلى الرسول وسألوه أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع ، فقال لهم " ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ " فقالوا : نعم ، فاختار الرسول سيدهم سعد بن معاذ ، فلما علم سعد بن معاذ بأنه قد حكم فى بنى قريظة قال : آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم وفرح واستبشر لأن رسول الله قد جعل له هذه المنزلة الكريمة ، ثم حكم فيهم سعد بما جعلهم عبرة أمام القرون والأجيال ، فقال : إنى أحكم أن تقتلوا الرجال وتسبُوا النساء والذرية ، فقال رسول الله ﷺ "لقد حكمت فيهم حكم الله يا سعد" . وهكذا كان حكم الله على بنى قريظة وهو أعدل الحاكمين .

تنفيذ الحكم :

وقد أمر رسول الله ﷺ فحفرت لهم خنادق بسوق المدينة ثم جىء بهم مكتفين بالحبال فضربت أعناقهم ، ودفنوا فى تلك الخنادق وكان عددهم ما بين ستمائة وسبعمائة رجل ، ثم قسمت أموال بنى قريظة ونساؤهم وأبناؤهم على المسلمين .

العبرة فى غزو بنى قريظة :

ضرب بنو قريظة أسوأ مثل فى الخيانة ، فخذلوا المسلمين فى أشد أوقات الحرج والضيق . ولولا لطف الله لتمكن الأحزاب من المسلمين وقضوا عليهم فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله وأراح المسلمين من شرهم ، فالظلم والغرور لا يدوم ، والبغى مرتعه وخيم .

صلح الحديبية
فى السنة السادسة للهجرة

بعد أن انتصر رسول الله ﷺ على الأحزاب فى غزوة الخندق ، وانتقم من بنى قريظة على مكرهم وغدرهم بدأ يعيش عيشة الهدوء والاستقرار ، وشعر المسلمون بالعزة تجرى فى عروقهم وتملأ قلوبهم . وكانت قريش لا تمكن أحدا من المسلمين من زيارة المسجد الحرام لأنها تراهم لا يستحقون هذا الشرف ماداموا يجعلون الآلهة إلها واحدا ، وماداموا لا يؤمنون (بهبل واللات والعزى ومناة) . وبينما كان المسلمون مجتمعين فى المسجد النبوى ذات صباح فى العام السادس الهجرى إذا أنبأهم النبى بما رآه فى نومه من أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ،وأخبرهم أنه يريد أداء العمرة معهم ، ففرحوا واستبشروا ، واستعدوا للخروج منتظرين أمر نبيهم الكريم .

خروج الرسول والمسلمين للعمرة :

خرج رسول الله ﷺ وفى صحبته المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، فبلغت عدتهم ألفا وأربعمائة . وساقوا الهْدى أمامهم و لم يحملوا من السلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وذلك لأنهم لا يريدون حربا أو قتالا . وإنما يريدون زيارة المسجد الحرام وأداء نسك العمرة وكان ذلك فى أول ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

موقف قريش من عمرة المسلمين :

علمت قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمين للعمرة ، فامتلأت نفوسهم بالألم والخوف ، وظنوا أنها خدعة دبرها محمد ليتمكن من دخول مكة بعد أن صدهم عن دخول المدينة ، وصمموا على منعهم من دخول مكة مهما بذلوا فى هذا السبيل ، وجهزوا لذلك جيشا قويا على رأسه خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل .

ولما وصل المسلمون الحديبية [1] بركت القصواء (ناقة النبى) فدعا النبى الناس إلى النزول ،

---

[1] مكان معروف يسمى باسم بئر فيه ماء وهو فى الطريق بين جدة ومكة ، ويبعد عن مكة حوالى عشرين كيلوا مترا ، ويسمى الآن الشميسى .

وبدأوا يستعدون للخطوة الجديدة التى لا يعرفون ماذا تكون . هل تسمح لهم قريش بزيارة المسجد الحرام فيدخلون بسلام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين أم تقف قريش فى سبيلهم فتمنعهم من أداء هذا الواجب ويعودون إلى المدينة ؟ وفى هذه الأثناء أرسلت قريش رسلا تستطلع أخبار المسلمين ، وكان آخرهم عروة بن مسعود سيد أهل الطائف فتوجهوا إلى رسول الله ﷺ ووضحت لهم نيته ، فرجعوا إلى قريش وطلبوا إليها أن تسمح له بدخول مكة ومعه أصحابه ، لكن قريشا تمادت فى الغى والعناد وأصرت على منع الرسول والمسلمين من أداء العمرة .

بيعة الرضوان :

وكان رسول الله ﷺ قد اختار عثمان بن عفان رضى الله عنه رسولا من عنده إلى قريش ليبلغهم مقصده ، فدخل عثمان مكة وبلغ قريشا أن رسول الله لم يجىء لحرب أو قتال ، وإنما جاء قاصدا العمرة ولكن قريشا رفضت ذلك ، ثم حبست عثمان عندها ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك "لا نبرح حتى نناجزهم الحرب" . ووقف الرسول تحت شجرة هناك وبسط يده للمسلمين ، وأقبل المسلمون فى إيمان عميق وإخلاص وتضامن يبايعون الرسول على الموت فى سبيل الله ، فرضى الله عنهم بهذه البيعة حتى سميت "بيعة الرضوان" ولكن سرعان ما تبين كذب تلك الشائعة وعرف أن عثمان حى لم يمسه سوء .

الصلح بين قريش والمسلمين :

وقد علمت قريش بهذه البيعة فاشتد بها الخوف وأطلقت سراح عثمان وأرادت أن تتدارك الأمر قبل أن يتفاقم خطره ، فأرسلت سهيل بن عمرو للتفاوض فى الصلح بينها وبين محمد فانتهى الرأى بين الفريقين على الشروط الآتية :

(١) توقف الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات .

(٢) إذا جاء أحد من قريش إلى المسلمين يلزمونه برده ، وإذا جاء أحد من المسلمين إلى قريش لا تلزم قريش برده .

(٣) أن يرجع النبى بغير عمرة هذا العام . ثم يأتى فى العام المقبل فيدخل مكة وأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام وليس مع أصحابه من السلاح إلا القوس والسيف فى

القراب .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

وقد كتبت هذه الشروط على الرغم من أن بعض المسلمين لم يرتضوها وظنوا أن فيها إجحافا بحقوق المسلمين ، ولكن رسول الله ﷺ كان مطمئنا أن هذا الصلح مقدمة لخير كثير سوف يناله المسلمون . وكان من أثر هذا الصلح أن دخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله ، ودخلت قبيلة بكر فى عهد قريش ، وبذلك أصبح المسلمون قوة باعتراف قريش ، تجير من يلجأ إليها ، ووقف المسلمون من قريش موقف العزة والكرامة . وقد أظهرت الحوادث بعد نظر الرسول ﷺ إذ أن المسلمين حافظوا على شروط الصلح بإخلاص وأمانة . ولكن قريشا غدرت وخانت فكان غدرها وخيانتها سببا فى فتح مكة ـــ كما سيأتى ـــ فلم يكن عجبا أن اعتبر هذا الصلح نصرا للمسلمين حتى سماه الله فتحا مبينا وأنزل فيه سورة الفتح التى بدأت بقوله تعالى : " إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ " . سورة الفتح .

كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء

١- كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم :

" من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، أما بعد ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن إثم الأكارين [1] عليك " .

فلما ترجم له الكتاب وهو دعوة واضحة للدخول فى الإسلام ، لم يغضب و لم تثر ثائرته ، بل رد على الرسالة ردا حسنا جميلا .

٢- كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى ملك الفرس :

وفى أوائل السنة الرابعة من الهجرة حمل عبد الله بن حذافة السهمى كتاب النبى ﷺ إلى المدائن

[1] الأكارين : المراد بهم الرعايا الذين يتبعونه وينقادون لأمره .

عاصمة الفرس فلما وصلها سلم الكتاب إلى كسرى ونصه :

"بسم الله الرحمن الرحيم " "من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس .. سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس" .

فلما ترجم الكتاب له وعرف أن محمدا ﷺ يدعوه إلى الإسلام استشاط غضبا ، ومزق الكتاب وصرف الرسول . فلما علم النبى ﷺ بما فعل كسرى بكتابه قال : "مزق الله ملكه" ، واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة نبيه ﷺ فتمزق ملك كسرى ، واستولى المسلمون على خزائنهم وأموالهم فى خلافة عمر رضى الله عنه .

٣- كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس بمصر :

بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة ، بكتاب إلى المقوقس ، حاكم مصر باسم الدولة الرومانية ـــ هذا نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم " "من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط .. سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط" .

" قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ " [١] .

وقد سار حاطب بالكتاب حتى حضر المقوقس فى الإسكندرية فسلمه كتاب رسول الله ﷺ فضمه إلى صدره ، ووضعه فى حق من عاج ، واستقبل حاطبا بما يستحق من إكرام ، ثم رده مزودا بهدايا قيمة : جاريتين : "مارية" التى اصطفاها النبى ﷺ لنفسه "وسيرين" التى أهديت لحسان بن ثابت ، وبغلة بيضاء : سميت دلدل ، وحمار أشهب : سمى يعفور ، ومقدار من المال . و لم يسلم المقوقس ، ويظهر أنه خاف على ملك مصر إذا اعتنق دينا يخالف دين الدولة التابع لها .

---

[١] سورة آل عمران آية ٦٤ .

٤- كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة :

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى ، بكتاب إلى النجاشى فسلمه فى عاصمة ملكه ـــ وهذا نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم " .. " سلم [١] أنت ، فإننى أحمد إليك الله : الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول [٢] الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم [٣] ودع التجبر، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت واقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى" . وكان طبيعيا أن يكون رده حسنا ، لأن الصلات بين المسلمين والنجاشى كانت طيبة ، فهو الذى آوى المهاجرين إلى بلاده وسمح لهم بالإقامة فى عز وكرامة ، فلما وصل إليه الكتاب وضعه بين عينيه ثم أسلم . أما أمراء العرب ممن أرسل إليهم النبى ﷺ فقد رد بعضهم ردا سيئا والآخر كان رده حسنا وأسلم .

نتيجة إرسال الرسل :

لا شك فى أن إرسال هؤلاء الرسل يدل على سياسة رشيدة وشجاعة عظيمة للرسول ﷺ ولذلك كانت نتائجها ما يأتى :

١- لم يتألب هؤلاء الملوك ـــ وهم أعظم قوة فى الأرض ـــ على رسول الله ﷺ بل لمسنا من إجابة أكثرهم رقة وعطفا مما زاد المسلمون إيمانا على إيمانهم .

٢- عرف الرسول ﷺ سياسة هؤلاء الملوك نحوه فكانت هذه الكتب بمثابة معرفة لرأيهم .

٣- إسلام النجاشى .

٤- أن المقوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بإرساله الهدايا للرسول ﷺ .

---

[١] أى أنت سالم لأن السلم بمعنى السلامة .

[٢] البتول : من انقطع عن الزواج .

[٣] قرى الضيف : إضافته .

فتح خيـــبر سنة ٧ هـــ / ٦٢٨ م

سبب فتح خيبر :

لقد ازدادت نقمة اليهود فى بلاد العرب على الإسلام والمسلمين بعد حـــادث بـــنى قريظـــة ، ولاسيما يهود خيبر الذين قد لجأ إليهم الكثير من بنى قينقاع والنضير بعد أن أجلاهم الرســـول ﷺ من ديارهم ، فكان لابد من القضاء على شوكتهم ، والتخلص من آخر مركز للدســـائس والخديعة حتى لا تقوم لهم قائمة ببلاد العرب . و لم يكن غزو خيبر سهلا ، لـــوفرة ســـلاحها وكثرة رجالها ومناعة منازلها وتعدد حصونـــها التى أحسن اليهود إعدادها خوف المفاجآت .

الاستعداد لغزو خيبر :

لم يطل انتظار الرسول ﷺ بعد عودته من الحديبية حتى رأى وجوب الإسراع لغزو خيبر ، فخرج من المدينة فى جيش عدده ألف وستمائة مقاتل وقد تميز بكثرة فرسانه ، وأسرع بالسير حتى قطـــع الطريق ما بين المدينة وخيبر فى ثلاثة أيام وصلوها ليلا ، وبيتوا أمام حصونـــها ، فلمـــا أصـــبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ورأوا جيش المسلمين صاحوا يقولون : محمـــد والجيش معه ، وولوا الأدبار ، فقال رسول الله ﷺ : "خربت خيبر إذا نزلنا بساحة قـــوم فســـاء صباح المنذرين" انتظم الجيش الإسلامى ووقف أمام الحصون بكامل معداته ينتظر أمر قائده .

موقف اليهود :

أما اليهود فقد أشار عليهم زعيمهم "سلام بن مشكم" بجمع أموالهم وعيالهم فى حصن "الكتيبة" وحشد المقاتلة فى حصن "نطاة" الحصين ودخل معهم يحثهم ويحرضهم على القتال والصبر .

حصار الحصون :

أمر النبى ﷺ بقطع النخيل المحيط بحصن النطاة ، لأن كثرته تحـــول دون تحركـــات القـــوات العسكرية فخرج اليهود للقائهم واستماتوا فى الدفاع عن حصونـــهم ، لأن فى هزيمتهم القضاء الأخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب . وانتهى اليوم الأول و لم ينل أحـــد الفـــريقين نصـــرا نـــهائيا. واستؤنف القتال فى الغداة ، واستمر ثلاثة أيام واليهود يحاربون أمام حصونـــهم فزعين من الحرب فى الميدان ، فإذا انـــهزموا عادوا إليها وأغلقوا دونـــهم . وفى اليوم السادس ، قـــال

رسول الله ﷺ : "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" ، وأخذ كل من الصحابة يتمنى أن تكون الراية من نصيبه ، وفى الغد بعث إلى على بن أبى طالب ، وسلمه الراية . وتقدم على رضى الله عنه فلما قرب من حصن "الناعم" خرج إليه أهله ودارت رحى معركة هائلة قتل قائد الحصن "الحارث بن أبى زينب" فتولى بعده أخوه "مرحب" وهو من أبطال اليهود وخرج وهو يرتجل ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب [1]

إن حماى للحمى لا يقرب يحجم من صولتى المجرب

وخرج لابسا درعين ومتقلدا بسيفين يريد المبارزة فتقدم له "على بن أبى طالب" وتصاولا حتى كاد "مرحب" أن يقتله إلا أن عليا سدد إليه ضربة شقت هامته فوقع قتيلا ، ثم هجم المسلمون على الحصن ففتحوه ثم سقطت حصونهم الواحد بعد الآخر ، فطلبوا الصلح . ودارت المفاوضات التى انتهت بالاتفاق على الشروط الآتية :

١- يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود ، ويتركون الذرية .

٢- تجلوا اليهود عن خيبر وأراضيها بذرياتهم .

٣- لا يأخذ أحدهم أكثر من ثوب واحد .

٤- تكون ذمة الله ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئا .

وهكذا تم الصلح واستولى المسلمون على خيبر وجلا عنها اليهود .

ما غنمه المسلمون من خيبر :

وغنم المسلمون من خيبر ألف رمح وأربعمائة سيف ومائة درع وخمسمائة قوس عدا كميات كبيرة من الحاصلات الزراعية والمتاع والماشية ـــ كما كان من بينها عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها ، فأمر النبى ﷺ بتسليمها لهم ، وهذا يدل على مدى احترام الإسلام والمسلمين للكتب المنزلة ومدى تسامحهم الذى أصبح مضرب الأمثال . وكان قتلى المسلمين

---

[1] تحرب : تغضب .

فى معارك خيبر لا يزيدون عن العشرين ، بينما كان قتلى اليهود حوالى ٩٣ قتيلا .

فدك [١] تطلب الأمان :

ولما وصلت أخبار انتصار المسلمين إلى أهل "فدك" وقع الرعب فى قلوبهم ، فبعثوا إلى النبى ﷺ وفدا يعرض عليه طاعتهم ، وأن يدفعوا له نصف حاصلاتهم من غير قتال ، فوافق ﷺ على ما عرضوه .

مهاجمة وادى القرى [٢] :

وبعد أن كتب الله لرسوله ﷺ ذلك النصر المظفر على يهود خيبر ، تأهب للعودة إلى المدينة عن طريق وادى القرى ، فلما علم اليهود الذين يسكنونها بمقدم الرسول تأهبوا للقتال ، وحملوا السلاح ، فحاصرهم النبى ﷺ أربعة أيام حتى أجبرهم على التسليم والولاء.

النتيجة :

وهكذا ساد سلطان النبى ﷺ على جميع اليهود وانتهى كل ما كان لهم من نفوذ فى شبه الجزيرة ، وضعف مركزهم حتى اضطروا إلى ترك البلاد ، وكانوا بها من قبل أعزة ، واستراح المسلمون من عدو كان يتربص بهم الدوائر .

غـزوة مـؤتـة [٣]

جمادى الأولى سنة ٨ هـ (٦٢٩م)

بعد أن أمنَّ النبى ﷺ جانب قريش بصلح الحديبية . رأى أن الشام والبلاد المجاورة لها هى الطريق الأول للدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، لذلك لم تمض أشهر على مقامه بالمدينة بعد عمرة القضاء حتى وجه النبى ﷺ رسولا من قبله بكتاب إلى أمير "بصرى" من قبل "هرقل" يدعوه إلى الإسلام فترصد له فى الطريق من يقتله وذلك على الرغم من أن الرسل لا تقتل .

---

[١] فدك : بلدة يهودية قريبة من خيبر .

[٢] موضع قريب من المدينة إلى جهة الشام آخر حصن لليهود .

[٣] مؤتة : مدينة تقع فى الشام ، جنوب شرقى عمان وتتبع الآن المملكة الأردنية الهاشمية .

فكان رد الرسول على هذه الخيانة أن أعد حملة لتأديب هؤلاء الغادرين ـــ عددها ثلاثة آلاف مقاتل ـــ وعقد اللواء فيها لـــ "زيد بن حارثة" وأمره بالزحف إلى "مؤتة" ، وقال : إن أصيب فاللواء لـــ "جعفر بن أبي طالب" وإن أصيب "جعفر" فـــ "عبد الله بن رواحة" .

خـــروج الجيـــش :

خرج الجيش ومعه "خالد بن الوليد" ، وودعه الناس ، وسار النبى ﷺ معهم خارج المدينة يدعوا لهم بالنصر ويوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ، ولا يهدموا المنـــازل ، وألا يقطعوا الأشجار" . لكن العدو قد علم بمسير الجيش ، فقام "شرحبيل الغسانى" واستنجد بمـــن حولـــه من قبائل العرب المسيحيين ـــ كما أمده "هرقل" بجيش كبير حتى بلغ عددهم حـــوالى مائة ألف أو أكثر . وتقدمت الجيوش الإسلامية حتى إذا وصلوا إلى أرض الشام علموا أخبـــار تجمعات الأعداء ومدى استعدادهم ، فعقد "زيد" مجلسا حربيا للنظر والتشاور ، فقال قائل منهم " نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بكثرة الأعداء ، فإما أن يرسل إلينا مددا ، وإمـــا أن يأمرنـــا بأمره فنمضى له" فوقف عبد الله بن رواحة وأخذ يشجع الناس على المضـــى والتقـــدم قـــائلا " انطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما نصر ، وإما شهادة " فأثرت كلماته فى نفوسهم ودفعتهم إلى التقدم حتى وصلوا مؤتة " .

إلتحام الجيوش واستشهاد زيد بن حارثة :

التقت قوة المسلمين ـــ القليلة بعددها ، القوية بإيمانـــها ـــ بقوة الأعداء واندفع زيد بن حارثـــة فى صـــدر العـــدو يصد الهجمات تارة ويتقدم تارة أخرى حتى مزقـــته رمـــــــاح العـــدو فوقـــع قتـــيلا فى ميدان الاستشهاد .

جعفر بن أبي طالب :

ثم انتقلت رياسة الجيش لجعفر بن أبى طالب ، كما أوصى النبى ﷺ فقاتل حتى أحـــاط العـــدو بفرسه ، فنـــزل عنها وتقدم راجلا وسط القوم يحصد الرءوس ويضرب الرقاب حتى قطعـــت يداه ، فاحتضن بعضديه حتى قتل بعد أن أصيب بأكثر من سبعين جرحا ، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح .

عبد الله بن رواحة :

عند ذلك انتقلت القيادة لعبد الله بن رواحة ، وسرعان ما سقط قتيلا .

هؤلاء استشهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الحق والدين ، فكانوا مثل خالدا من أمثلة البطولة والتضحية والإيمان ، وأصبحوا قدوة كريمة على مدى الزمان لكل مؤمن يريد أن يكتب لأمته تاريخا ولوطنه خلودا .

خالد بن الوليد :

وبعد استشهاد الأبطال الثلاثة اتفق الناس على تولية خالد بن الوليد فاستطاع أن يوحد الصفوف ويجمع الشمل . وصار يناوش العدو حتى أقبل الليل فأخذ فى تدبير الخطة وتنظيم الجيش من جديد . فلما أصبح الصباح ظن العدو أن مددا لحق بالمسلمين ، فلم يهاجموهم بل سروا حين سكت المسلمون عن قتالهم وتمنوا أن يعودوا دون اشتباك . أما خالد فقد آثر المحافظة على المسلمين بالانسحاب . وكانت مهارة بارعة حيث استطاع أن ينقذ الجيش الإسلامى من خطر محقق وعاد إلى المدينة .

مواساة الرسول ﷺ لأسر الشهداء :

وقد بلغ الأسى من نفس رسول الله ﷺ منذ علم بمقتل القواد الثلاثة مبلغا كبيرا . فعن "أسماء بنت عميس" رضى الله عنها زوج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قالت : دخل رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال : " إئتنى ببنى جعفر" فأتيته بهم ، فضمهم وذرفت عيناه بالدمع قالت أسماء فى لهفة وقد أدركت ما أصابها : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : "نعم ، أصيبوا هذا اليوم " ، وفاضت عيناه بالدمع ، قالت : فقمت أصيح واجتمع على النساء وجعل رسول الله ﷺ يقول لى : " يا أسماء .. لا تقولى هجرا ولا تضربى خدا " ، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : " لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم" . وهكذا كانت مواساته لأبناء الشهداء .

العبرة من غزوة مؤتة :

١- هذه الوصية التى وجهها النبى ﷺ للجيش وهو ذاهب إلى مؤتة بعدم التعرض للعجزة

والمرضى والمنازل والمزارع ، وتلك التعاليم التى تميزت بها حروب المسلمين فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ، لم تكن موجودة فى القرن العشرين وفى العصور التى تدعى المدنية والحضارة ، وما حوادث الحرب العالمية الثانية عنا ببعيد ، فقد اتسمت بالتخريب ومهاجمة الآمنين دون مراعاة لأبسط قواعد الإنسانية ، وإلى وقت قريب كنا نسمع عن حوادث تقشعر لها الأبدان فى الجزائر على يد فرنسا التى تعتبر نفسها من الدول المتحضرة .

٢- قوة إيمان المسلمين التى جعلتهم يتقدمون لملاقاة جيش يفوق جيشهم فى غير تردد أو خوف من الموت فى سبيل الله ، فقد حملوا أرواحهم على أكفهم وألقوا بها فى وجه كل من يقف فى سبيل الدعوة إلى الله .

٣- موقف الرسول ﷺ من أسر الشهداء ، فيه توجيه للمسلمين إلى ما يجب عليهم نحو المحزونين من مواساة لهم وإعداد طعام يبعثون به إليهم ، لأنهم قد شغلوا بأنفسهم ، أما ما عليه المسلمون الآن من إقامة حفلات أحيطت بإسراف ممقوت ، فهذا ليس من السنة النبوية فى شىء .

فتح مكة فى رمضان سنة ٨ هـ
فى يناير سنة (٦٣٠م)

كان رسول الله ﷺ يتمنى ويحب أن يفتح مكة فهى حصن الشرك ، ومعقل الكفر ، وهو يعلق الآمال على هداية أهلها الذين وقفوا ويقفون دائما فى وجه الدعوة الإسلامية ، ولكن أنى له ذلك وهو مرتبط بعهد مع قريش ، بهدنة لا تحل لأحد الطرفين أن يهاجم الآخر خلالها .

نقض قريش عهد الحديبية :

فى أواخر السنة الثامنة من الهجرة كان قد مضى على صلح الحديبية سنتان تقريبا ، حافظ المتعاقدان فى أثنائهما على مواد المعاهدة التى كان من شروطها أنه من أحب أن يدخل فى عقد مع قريش فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد مع رسول الله ﷺ فليدخل فيه ـ وكانت خزاعة [1] قد انضمت إلى الرسول ﷺ وبنو بكر دخلت فى عهد مع قريش . وكانت بينهما عداوات قديمة هدأت فترات واشتعلت أخرى ، فلما كانت الهدنة بين المسلمين وقريش

[1] كانت خزاعة وبنو بكر يسكنان فى ضواحى مكة .

انتهزتـــها بنو بكر فرصة وساعدتـــهم جماعة من قريش ، فهاجموا خزاعة ، وقتلوا بعضا منهم ، فلجأت خزاعة إلى حلفائها المسلمين تشكو نقض قريش وبنى بكر العهد ، وأرسلت وفـــدا إلى رسول الله ﷺ يخبره بما يحدث لهم ويقول :

يا رب إنـــى ناشد مـــحمـــدا حلف أبـــينـــا وأبـــيه الأتلـــدا [1]
والدا كنـــا وكـــنـــتم ولـــدا ثمت أسلمـــنا فلم ننـــزع يـــــدا
فانصر هداك الله نصـــرا أعتـــدا وادع عبـــاد الله يأتـــوا مـــــددا
فيهم رســـول الله قـــد تجـــردا إن سيم خســـفا وجهـــه تربـــدا
إن قريشا أخلفوك المـــوعـــــدا ونقضـــوا ميثاقـــك المؤكـــــدا
وزعموا أن لست تدعـــو أحـــدا وهـــم أذل وأقـــــل عـــــــددا
هم بـــيـــتـــونـــا بالوتير هجدا وقتـــلونـــا ركعـــــا وسجـــــدا

فقال رسول الله ﷺ لزعيمهم عمرو بن سالم الخزاعى : " نصرت يا عمرو بن ســـالم " ورأى الرسول أن نقض قريش للعهد سبب قوى لفتح مكة .

الاستعداد لفتح مكة :

رأى رسول الله ﷺ ألا يترك لقريش فرصة يتجهزون فيها للحرب فيأخذهم على حـــين غفلـــة حتى يسلموا من غير أن تراق الدماء ، لذلك أصدر الأوامر بالتعبئة العامة . وأوصـــى الجـــيش بإخفاء الأمر حتى لا تتسرب الأخبار إلى قريش فى مكة . وفى ثمانية من رمضان من السنة الثامنة للهجرة (الموافق يناير سنة ٦٣٠ م) تحرك جيش المسلمين من المدينة إلى مكة ليفتحها ، وليضـــع يده على البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وعلى رأسه الرسول ﷺ وهو موحـــد الغاية ، وكل أمله أن يدخل البيت الحرام من غير أن تراق قطرة دم واحدة ، وفى أثنـــاء الســـير انضم إليه فرق من قبيلة أسلم ومزينة وغطفان وغيرها حتى بلغ عدده عشـــرة آلاف ، وبعـــد أسبوع وصلوا "مر الظهران" [2] فعسكر المسلمون فيه .

---

[1] الأتلد : القديم .

[2] واد كبير يبعد عن مكة بحوالى ٣٠ كيلو متر .

أبو سفيان يستطلع الأخبار :

وقد أمر رسول الله ﷺ أن يوقد كل فرد نارا لتظهر قوة الجيش الإسلامى القريب من مكة ، فيلقى الرعب فى قلوب قريش فتأتى صاغرة للتسليم ، وكان أبو سفيان بن حرب قد خرج يلتمس الأخبار ويستطلع مبلغ الخطر الذى شاعت أنباؤه فى مكة . وفى جنح الظلام وعلى مقربة من نيران المسلمين لقيه العباس بن عبد المطلب فناداه ، فوقف أبو سفيان وقال له : ما وراءك ؟ قال العباس : هذا رسول الله ﷺ أتاكم بما لا قبل لكم به . قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال العباس : أنصحك بأن تركب ورائى (وكان يركب بغلة رسول الله) فآتيه بك وأستأمن لك . وأردف العباس أبا سفيان وسار به نحو خيمة رسول الله ، يقول العباس : فلما مررت بنار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان ، فأسرع إلى خيمة النبى ﷺ وطلب أن يضرب عنقه ، فقال العباس : إنى قد أجرته فقال ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به . فلما كان الصباح جاء العباس إلى النبى ﷺ وجرى الحديث الآتى :

– " ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ "

– أبو سفيان : ما أحلمك وأوصلك . والله قد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لكان أغنى شيئا.

– الرسول ﷺ : "ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ "

– أبو سفيان : أم هذه فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئا .

فتدخل العباس . وقال له : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال رسول الله ﷺ : " نعم : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن" .

الجيش يدخل مكة :

وبعد ذلك أمر الرسول العباس أن يقف مع أبى سفيان على الطريق الضيق المؤدى إلى مكة حتى تمر عليه جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه عن قوة المسلمين ، ومرت القبائل بأبى سفيان وهو يسأل عنها العباس ، حتى قال : يا عباس ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، وأسرع إلى مكة يصيح

بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وركب الرسول ناقته القصواء وأصدر الأوامر إلى قادة الجيش ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على القتال ، وساروا حتى دخلوا مكة و لم يحدث إلا مناوشات خفيفة وأهمها ما لاقاه خالد بن الوليد قائد الجناح الأيمن فقد قتل حوالى عشرين رجلا ممن وقفوا فى طريقه و لم يقتل من المسلمين سوى اثنين . ولما تم للمسلمين الاستيلاء على مكة نظر الرسول ﷺ إلى البلد الأمين وإلى الجبال التى كان يأوى إليها حين يشتد به أذى قريش ــ فترقرقت فى عينيه دمعة شكرا لله ــ ثم سار حتى بلغ البيت الحرام فطاف به سبعا ، ثم استلم الحجر ، وتكاثر الناس حوله فى المسجد فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ " . سورة الحجرات آية ١٣ .

ثم قال : يا معشر قريش ويا أهل مكة ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن أهل مكة جميعا . وهكذا سقط أكبر معقل للوثنية فى بلاد العرب فى ٢٠ رمضان سنة ٨ هـ .

تطهير الكعبة من الأصنام :

دخل رسول الله ﷺ الكعبة ، وكان بداخلها وخارجها أصنام تعبدها قريش فأخذ يشير إليها بقضيب فى يده ويقول : " جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا " وأمر بإخراجها وتحطيمها وتطهير البيت الحرام منها . وبعد أن استتب الأمن بوجه عام أخذ النبى ﷺ يرسل السرايا إلى القبائل المجاورة لمكة يدعوها إلى الإسلام وتحطيم الأصنام فهدمت العزى ومناة وسواع [1]، وبذلك ذهبت هيبة الأوثان من النفوس وزال سلطانها ، واستنار العالم العربى بنور التوحيد الوضاء .

---

[1] العزى:صنم بجهة نخلة بين مكة والطائف . مناة : صنم للأوس والخزرج على جبل بالقرب من البحر الأحمر ، وسواع : صنم لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة .

نتائج فتح مكة :

١- قضى الإسلام على الوثنية والشرك فى أغلب جزيرة العرب ، وأنشأ لها نظما وتشـــريعات جديدة سعدت بها وارتقت .

٢- قضى على عهد الصراع بين القبائل فانصرفت إلى نشر الإسلام وتعزيزه .

العــبرة مــن فتــح مكــة

- **العفو عند المقدرة :**

بعد أن تم فتح مكة ، واجتمع الناس حول رسول الله ﷺ ، نظر فرأى منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن قاتلوه فى بدر ، وأمعنوا له العداء فى أحد . وحاصروه فى غـــزوة الخنـــدق ، وعـــذبوه وأصحابه ، نظر إليهم وهم جميعا فى قبضة يده ـــ أمره نافذ فى رقابـــهم ، وحياتـــهم رهـــن كلمة ينطق بـــها ، ومع كل هذا فقد نظر إليهم نظرة كلها عفو ورحمة قائلا لهم : " اذهبـــوا فأنتم الطلقاء " فكان مثلا أعلى للعالم كله فى سمو النفس ، والعفو عند المقدرة .

- **المحافظة على الدمـــاء :**

كما ضرب المثل فى المحافظة على الدماء بإصدار الأوامر إلى قادة الجيوش ألا تسفك دمـــا إلا إذا أكرهت إكراها . وقد كان من أثر هذه السياسة . أن كسب الرسول قلوب أهل مكة فأقبـــل على الإسلام فتيان قريش وشيوخها ونساؤها و لم يحجم عنه إلا نفر أكل الحســـد قلوبـــــهم وسيطر العناد على أفئدتـــهم .

غزوة حنين وحصار الطائف [1]

(شوال سنة ٨ هـــــ)

وفى هذا الوقت الذى امتلأت فيه قلوب المسلمين بالنعمة التى أسبغها الله عليهم من فتح مكـــة بلدهم الأمين ، وتطهير الكعبة وما حولها من الأصنام ترامت الأنباء بأن هوازن وثقيفا تميـــزت غيظا لما علمت بانتصار المسلمين فى مكة ، فأخذت تعد العدة لصد الرسول محمد ﷺ الـــذى

[1] حنين : واد فى طريق الطائف بينه وبين مكة ثلاث أميال ، والطائف مدينة تبعد عن مكة ١٢٠ ك م.

أخذ يعمل للقضاء على استقلال قبائل العرب .

استعداد الأعداء (هوازن وثقيف) : [1]

أرسلت هوازن وثقيف إلى بطونها وفروعها تطلبان إليهم أن يجتمعوا بخيلهم ورجلهم عند "وادى أوطاس" قرب الطائف ، وأسندت إلى "مالك بن عوف" وكان شابا فى الثلاثين من عمره قوى الإرادة ، ماضى العزيمة ، فاجتمع إليه عدد كبير منهم "بنو سعد" الذين كان الرسول ﷺ مسترضعا فيهم ، ومعهم "دريد بن الصمة" وكان شيخا كبيرا عمى بصره وصار لا ينتفع إلا برأيه وتجاربه فى الحروب . وأمر مالك رجال القبائل أن يسوقوا معهم إلى الحرب ـــ المواشى والأموال والنساء والأطفال وجعلهم فى مؤخرة الجيش ليثيروا الرجال إلى الاستماتة فى الدفاع عن متاعهم وحريمهم ، فلما سمع دريد رغاء البعير وبكاء الصغير ، وثغاء الشاة سأل "مالك" لم ساق هذه مع المحاربين ؟ فأجاب بأنه أراد بذلك تشجيع المحاربين ، قال "دريد" : وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ، فلم يقبل مالك رأى الشيخ ، وتخطى احتجاجه ورماه بضعف الرأى لكبر سنه ، ثم صف جموعه وكانت تبلغ ٢٠ ألفا فى كمين عند مضيق الوادى وانتظروا قدوم الجيش الإسلامى .

إعداد الحملة وسيرها :

أما المسلمون فغادروا مكة يوم السبت ٦ من شوال سنة ٨ هـ إلى وادى حنين فى اثنى عشر ألفا من المقاتلين منهم عشرة آلاف هم الذين فتحوا مكة ، وألفان ممن أسلم من قريش ، وسار المسلمون وسط صهيل الخيل وبريق السيوف معجبين بكثرتهم ، فخورين بقوتهم ، حتى لقد تحدث بعضهم إلى بعض قائلين : " لن نغلب اليوم من قلة " ونزلوا "حنينا" قرب المساء على أبواب واديها .

القتال :

وقبيل الفجر تحرك الجيش الإسلامى ، و لم تكد الطلائع تتقدم إلى مدخل الوادى حتى خرج لهم الكمين وشدوا عليهم شدة رجل واحد وأمطروهم بوابل من النبال وانقضوا على أولى صفوف

---

[1] هوازن وثقيف قبيلتان من العرب تسكنان الجهات الواقعة فى الجنوب الشرقى من مكة. وأهم مدنها الطائف حيث كانت تسكن ثقيف . وهى أخصب بلاد العرب .

المسلمين التى ارتجت لهذه المفاجأة العنيفة فلوت أعنة خيلها متقهقرة ، واصطدمت فى الظلام بما وراءها من صفوف المسلمين ، ولجأ الكل إلى الفرار ، وتحدث بعض من ضعاف الإيمان فى شماتة قائلا : " لا تنتهى هزيمتهم دون البحر" .

موقف الرسول ﷺ وشجاعته :

كل هذا والنبى ﷺ ثابت فى مكانه ، ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار .. منهم العباس بن عبد المطلب ، وأبو بكر وعمر وأسامة بن زيد ، فأخذ النبى ﷺ ينادى القوم بالثبات وهو راكب بغلته البيضاء يركضها نحو العدو وهو يقول : " أنا النبى لا كذب أنا بن عبد المطلب ".

الانتصار بعد الهزيمة :

وأمر رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب ، وكان جهورى الصوت ، أن ينادى فى الناس ، فنادى : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، هلموا . هذا رسول الله ﷺ وأخذ يكرر النداء الذى هز أوتار قلوبهم ، فرجعوا يتصايحون من كل جهة "لبيك لبيك" حتى انتظم عقدهم ، وكانت هوازن قد انحدرت من مكانها وأصبحت وجها لوجه أمام المسلمين ، وهجم الأنصار واشتد القتال : فنظر إليهم الرسول ﷺ وهم يطيحون برءوس الأعداء قائلا : " إن الله لا يخلف رسوله وعده" فلما رأت هوازن أنهم معرضون للفناء ، وأن كل أمل فى النصر قد غاض ، ولوا الأدبار منهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وغنموا مؤخرة جيشهم كلها .

غنائم المسلمين :

وكانت غنائم المسلمين ٢٤٠٠٠ من الإبل ، ٤٠٠٠٠ من الشياه ، ٤٠٠٠ أوقية من الفضة ، ٦٠٠٠ من الأسرى وقد نقلت كلها فى حراسة قوية إلى وادى الجعرانة .[1]

حصار الطائف :

أما النبى ﷺ والمسلمون فقد تابعوا مطاردة العدو حتى ألجئوهم إلى صياصى الجبال وإلى الطائف ، وحاصر الرسول الطائف ، ولكنها استعصت عليه لسورها الحصين ، فآثر تركها لأنه

---

[1] تبعد عن مكة حوالى ٤٠ كيلو مترا .

ليس من مصلحة المسلمين بذل ضحايا كثيرة وعاد إلى الجعرانة حيث الغنائم والأسرى .

تقسيم الغنائم :

أعطى رسول الله ﷺ الكثير من الأموال لحديثى الإسلام من قريش والأعراب الذين كانوا إلى أيام قريبة أشد الناس عداوة له . فكان ما أخذه أبو سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل ، وكذا سائر الأشراف ورؤساء العشائر . وأعطى خمسين من الإبل لمن كان دون هؤلاء شأنا ، و لم يدع لأحد من المؤلفة قلوبهم حاجة إلا قضاها . وظهر ﷺ بمظهر كان غاية فى السماحة والكرم مما جعل أعداء الأمس تلهج ألسنتهم بالثناء عليه .

عودة الرسول ﷺ إلى المدينة :

وذهب الرسول ﷺ بعد ذلك إلى المدينة آمنا مطمئنا فائزا غانما ، فوصلها لست بقين من ذى القعدة سنة ٨ هـ ولقد أنزل الله فى هذه الغزوة من سورة التوبة : قال تعالى : " لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ " . سورة التوبة .

نتائج غزوة حنين :

١- بانتصار المسلمين فى حنين زالت آخر مقاومة كبيرة كانت العرب تستطيع توجيهها ضد الإسلام والمسلمين وتم فتح الحجاز عمليا .

٢- أقبلت بعد ذلك وفود كثيرة من القبائل تعلن دخولها فى الدين الإسلامى وخضوعها للدولة الإسلامية .

العبرة من غزوة حنين :

كان الغرور ولا يزال أساس الشر والبلاء ، فالمسلمون حينما اغتروا بكثرتهم يوم حنين حاقت بهم الهزيمة ، فلما نزعوا ثوب الغرور واعتمدوا على الله ، ولجئوا إلى قوته ، جعل الله لهم مع العسر يسرا وبدل هزيمتهم نصرا .

غـــزوة تبـــوك [1]

(أو العسرة فى رجب سنة ٩ هـــ)

لم يبق من شبه الجزيرة ناحية من النواحى إلا أحست بسلطان المسلمين ، و لم تحاول أية قبيلة من القبائل أن تقاوم هذا السلطان . وبينما كان ﷺ يعمل على تثبيت دعائم الدولة الإسلامية المظفرة ، إذ جاءته أخبار من بلاد الروم أنـــها قد تجمعت لغزو بلاد العرب الشمالية ، لذلك عزم عليه الصلاة والسلام على مواجهة هذه القوى بنفسه ، والقضاء عليها قضاء يبدد كل أمل فى الهجوم على المسلمين ، على الرغم من أن الوقت كان شديد الحرارة والمسافة طويلة تحتاج إلى الصـــبر وكثرة الزاد .

دعوة الرسول ﷺ إلى الجهاد وإخلاص الصحابة :

فاتح الرسول الناس بعزمه على الخروج لقتال الروم ، و لم يخف الجهة عن المسلمين كما كانـــت عادته فى كثير من الغزوات بل أفضى إليهم بالغرض منها ليتأهبوا ويأخذوا العدة ، وأرسل إليهم يستنفرهم ويحثهم على التبرع كما حض أثرياء المسلمين على المشاركة فى تجهيز الجيش بما أتاهم الله من فضله . واستجابت الكثرة من المسلمين لهذه الدعوة فأقبلوا جماعات حتى ضـــاق بهـــم فضاء الصحراء يسوقون أمامهم خيلهم وإبلهم مدرعين بأسلحتهم لم تمنعهم مشقة الطريـــق ولا شدة الحر ، وتبارى كبارهم فى الإنفاق وشراء السلاح ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه بكل ماله ، فقال له الرسول ﷺ "هل أبقيت لأهلك شيئا ؟ " ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، كما أسرع عثمان بن عفان رضى الله عنه بتجهيز ثلث الجيش من ماله .

البكـــاءون :

وأقبل كثير من الفقراء يطلبون من رسول الله أن يحملهم معه ، فحمل بعضـــهم واعتـــذر إلى الباقين. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون . قـــال تعـــالى : " وَلا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ

[1] تبوك : موضع بين وادى القرى والشام .

ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ " . سورة التوبة آية ٩٢ .

وجاءت جماعة من المنافقين يلتمسون الأعذار ويحلفون بالله قائلين : لو استطعنا لخرجنا معكم ـــ والله يعلم إنهم لكاذبون ـــ كما كانوا يمنعون بعضهم من الغزو فى الجو المحرق ، ففضح الله أمرهم بقوله تعالى : " وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ " سورة التوبة آية ٨١ .

ومع هذا فقد بلغ عدد الجيش الإسلامى ثلاثين ألفا تقريبا فيهم عشرة آلاف من الفرسان .

مسير الحملة :

اجتمع الجيش الإسلامى وأعطى الرسول لواءه لأبى بكر الصديق ، ثم تحرك ثوب الشام مخترقا الصحراء وسط صهيل الخيل ورغاء الإبل حتى وصل إلى تبوك فلم يجد فيها جيشا للروم ، فعسكر فيها حوالى ثلاثين يوما و لم ير الرسول ﷺ محلا لتتبعهم داخل بلادهم وأقام عند الحدود ينازل من شاء أن ينازله متحديا أية قوة تأتيه .

موقف أمراء الحدود :

وكان "يوحنا بن رؤية" أمير إيلة [1] ، واليا على القبائل المسيحية واليهودية فى هذه المنطقة ، فوجه إليه النبى ﷺ رسالة يخبره فيها : إما الإذعان وإما الحرب ، فآثر الأولى وأقبل على الرسول معلنا الطاعة ، وعقد الرسول معه معاهدة اتفق فيها على أن يدفع جزية قدرها ثلثمائة دينار كل عام كما وفد عليه أميرا قبيلتى أذرح [2] وحرباء يطلبان تأمينها ومحالفة المسلمين : فصالحهما الرسول على الجزية . و لم يكن أمام الرسول ﷺ إلا أمير دومة الجندل الذى كان يتوقع منه العداء ، فبعث إليه خالد بن الوليد فى قرابة خمسمائة فارس وعاد هو بعد ذلك إلى المدينة . وأسرع خالد إلى دومة الجندل ، فانقض عليها فى حين غفلة من أميرها فلم يلق مقاومة تذكر ، وفتحت له المدينة أبوابها . بعد أن وقع أميرها فى الأسر ، وغنم منها ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمائة درع وقدرا كبيرا من البر ، ثم عاد إلى المدينة ومعه الغنائم والأسرى ، فعرض

---

[1] أيلة : تقع على خليج العقبة .

[2] من أرض الشام من نواحى عمان.

الرسول ﷺ الإسلام على أمير دومة الجندل ، فأسلم وأصبح حليفا للمسلمين .

موقف المتخلفين بعد عودة الرسول ﷺ :

اضطرب أمر الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وجاءوا إلى الرسول ﷺ يعرضون معاذيرهم الكاذبة ، فأعرض عنهم . ولكن ثلاثة [1] من المعتذرين صدقوا الله ورسوله ، وندموا على ما فاتهم فأمر الرسول المسلمين أن يقاطعوهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، واحتملوا هذا الدرس القاسى خمسين يوما ، حتى تاب الله عليهم وعفا عنهم .

قال تعالى : " وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ " . سورة التوبة آية ١١٨ .

نتائج غزوة تبوك :

١- ارتعدت فرائض المنافقون فخافوا وانعزلوا وأنهارت قواهم و لم يبق منهم إلا من أخلص لله ورسوله .

٢- أمَّن ﷺ على شبه الجزيرة ، وتكاثرت الوفود من نواحيها تقدم طاعتها وولاءها للمسلمين .

٣- كانت غزوة "تبوك" خاتمة غزوات النبى ﷺ ومن بعدها أقام النبى بالمدينة مغتبطا بما أفاء الله عليه ، مطمئنة نفسه بهذا النصر الذى وعد به .

بعض العبر فى غزوة تبوك :

١ــ أظهرت هذه الغزوة أن النفاق لابد أن يفتضح أمره فى وقت الشدة ، فهؤلاء المنافقون خافوا من الحر الشديد فأرادوا أن يثبطوا همة المؤمنين وقالوا لهم : لا تنفروا فى الحر ، فكشف الله نفاقهم ورد عليهم بقوله : " وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ " سورة التوبة .

---

[1] هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أميه .

٢ــ أن الله عز وجل يفتح باب التوبة أمام المذنبين إذا اعترفوا بذنوبهم وندموا على ما فرط منهم ، فهؤلاء الثلاثة تخلفوا دون عذر عن هذه الغزوة ، حينما أدركوا خطأهم وندموا وتابوا غفر الله لهم وتاب عليهم .

الوفود إلى النبى ﷺ

بعد غزوة تبوك ، وبعد أن تمت كلمة ربك الحسنى فى شبه الجزيرة العربية ، وامتد نفوذ الإسلام شمالا وجنوبا ، أخذ المشركون يفكرون فى أمرهم ، فرأت القبائل التى لا تزال على جاهليتها أن من الخير لها أن تهرع إلى محمد ﷺ لتقدم ولاءها وتعلن عن إسلامها . واشتهرت السنة العاشرة من الهجرة بعام الوفود .

١– وفد ثقيف بالطائف :

كان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف بالطائف غائبا زمن حصار النبى ﷺ ، فلما عاد ، ووقف على أخبار النبى ﷺ وانتصارته أسرع إلى المدينة وأعلن إسلامه وأخذ على نفسه دعوة أهل الطائف للإسلام ، ثم عاد إلى الطائف ودعا إلى التوحيد فقتله قومه . لكن بعد مقتله رأت ثقيف أن القبائل المحيطة بها قد أسلمت ، وأن ما حدث منها كان تهورا ، فمصيرهم على هذا الوضع سيؤدى بهم إلى الفناء ، لهذا قرروا إرسال وفد إلى النبى ﷺ يعرض عليه صلح ثقيف ، وذهب الوفد إلى المدينة وعرضوا على الرسول قبولهم الإسلام ، على شرط أن يدع لهم صنمهم "اللات" وأن يعفيهم من الصلاة فأبى الرسول ﷺ إباء لا تردد فيه ولا هوادة فنزل الثقيفيون على رأى رسول الله ، ثم عادوا إلى بلادهم وبعث معهم جماعة من المسلمين لهدم أصنامهم ونشر الإسلام بينهم . وبذلك زال آخر معقل للوثنية فى أواسط بلاد العرب .

٢– وفد بنى حنيفة [١] :

وقصد بنو حنيفة رسول الله ﷺ فى المدينة ومعهم مسيلمة بن حبيب الحنفى (الكذاب) فطلب من النبى ﷺ أن يشركه معه فى النبوة ، فقوبل بالرفض ، وأسلم الوفد الذى كان معه . أما هو

[١] من اليمامة فى نجد .

فقد ادعى النبوة ، ورفع عن قومه الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ترغيبا لهم فى اتباعه ، وقاتل المسلمين بعد ذلك فى حروب الردة حتى قتل .

٣- وفود اليمانيين فى المدينة :

استقبل النبى ﷺ وفودا عديدة من بلاد اليمن منها ، وفد الأشعريين ، قوم أبى موسى الأشعرى ، أسلموا وبايعوا وقال الرسول فى حقهم : " يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ كَأَنَّهُمُ السَّحَابُ ، هُمْ خِيَارُ مَنْ فِي الْأَرْضِ " . رواه أحمد .

٤- وفد حضر موت :

وجاء إلى المدينة وفود من حضر موت ، فاستقبلهم النبى ﷺ استقبالا حسنا ، فأعلنوا إسلامهم ، وأرسل معهم من يجمع منهم الزكاة . وهكذا انتشر الإسلام فى اليمن وحضر موت ، ودخل هذا القسم الكبير فى الدين الإسلامى .

٥- وفود البحرين [١] وعمان [٢] :

قدم إلى المدينة فى السنة التاسعة وفود من البحرين ومن عمان وبايعوا النبى ﷺ فأسلموا وصح إسلامهم وعادوا إلى بلادهم . وهكذا أخذت وفود البلاد العربية من الشمال إلى الجنوب تتوارد من كل صوب قاصدة المدينة لتبايع رسول الله ﷺ ولتعلن الطاعة والتدين بالإسلام وتدفع عنه بالنفس والمال .

حجة الوداع

سنة ١٠ هـ ، سنة ٦٣٢ م

أقبل شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، و لم يكن رسول الله ﷺ قد أدى فريضة الحج ، والمسلمون فى حاجة إلى من يرشدهم عمليا إلى مناسكه ، لهذا دعا الرسول ﷺ الناس إلى الحج معه ، فأقبلوا جماعات إلى المدينة حتى بلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون . وفى اليوم الخامس

---

[١] تقع على الخليج الفارسى وسكانها عرب .

[٢] تقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب وسكانها مسلمون .

والعشرين من شهر ذى القعدة تحرك ركب الحجاج من المدينة فى فرحة شاملة وأمامهم الرسول ﷺ إلى بيت الله الحرام ، فلما وصلوا "ذا الحليفة" [1] باتوا فيها وفى الصباح أحرم النبى ﷺ وأحرم المسلمون ، فنزعوا المخيط ، ولبسوا ملابس الإحرام وتوجه الرسول ﷺ إلى الله والمسلمون من ورائه داعين (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) فتجاوب فى نواحى الصحراء صداها حتى وصلوا مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، فتوجه الرسول والمسلمون إلى الكعبة ، فاستلم ﷺ الحجر الأسود وقبله وطاف بالبيت سبعا ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا ، ثم ذهب إلى "منى" ومنها إلى جبل عرفات ، فأقيمت له خيمة فاستراح حتى زالت الشمس ثم ركب ناقته القصواء ونادى فى الناس بصوت مرتفع يردده من بعده "ربيعة بن أمية بن خلف" قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " أيها الناس اسمعوا قولى هذا فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا" ، "أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها " ، "وإن كل ربا موضوع [2] ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون" إلى أن قال : "أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم" . أيها الناس : "إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية [3] ، ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان" ، "أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن

---

[1] مكان بينه وبين المدينة ٤٠ كم تقريبا ، وهو ميقات أهل المدينة وتسمى حاليا آبار على .

[2] أى مهدر .

[3] ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم .

رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان [1] لا يملكن لأنفسهن شيئا وأنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله" ، "فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا ، كتاب الله وسنة رسوله" ، "أيها الناس : استمعوا قولى واعقلوه : تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم" ."اللهم قد بلغت؟" فأجاب الناس : نعم ، فقال ﷺ : "اللهم فاشهد" .

ثم ترك الرسول عرفات وقضى ليلة بالمزدلفة ، ثم ذهب إلى منى ، ورمى فى طريقه إليها الجمرات ، ثم نحر الهدى . وحلق رأسه ، وبذلك قد أتم حجه وعلم الناس مناسكهم ، وما فرض الله عليهم ، ثم عاد إلى المدينة بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وبين للناس معالم الحلال والحرام ، وأكد حرمة الدماء والأعراض والأموال ، وأوصى بالنساء خيرا فى خطبته الخالدة الجامعة وأعلن عن رب العزة . قال تعالى : " ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ " . سورة المائدة آية ٣ .

وفاة رسول الله ﷺ
سنة ١١ هـ ـ سنة ٦٣٣ م

مرض رسول الله ﷺ فى أواخر صفر سنة ١١ هـ واشتد عليه المرض حتى أغمى عليه ورأسه فى حجر عائشة ـ رضى الله عنها ـ وكانت تدعو له بالشفاء ، وكان يقول : " إن للموت لسكرات " ، قالت فاطمة لما تغشاه الكرب : واكرب أبتاه ، فقال ﷺ "لا كرب على أبيك بعد اليوم" . وفى صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ قبض النبى ﷺ إلى رحمة ربه وهو فى الثالثة والستين من عمره ، قضى منها ٢٣ سنة يجاهد فى تبليغ الرسالة ونشر الدعوة ، فأدرك من التوفيق والنجاح ما قرت به عينه وعين البشرية . فقد جاء بدين هو أفضل الأديان وأكملها ، وسن شريعة أجمع الباحثون على أنها أرقى شريعة سماوية عرفها البشر فى تاريخهم ، وأسس هيئة اجتماعية على دعائم ثابتة من الإخاء والمساواة والحرية ، لا فضل لأحد

[1] عوان : أسرى أو كالأسرى .

فيها على أحد إلا بالتقوى .

قال تعالى : " إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ " . سورة الحجرات آية ١٣ .

فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله بقدر ما جاهدت لإنقاذ الإنسانية وإقالتها من عثراتها ، وإقامتها على المحجة الواضحة . وحمدا لله إذ جعلنا الوارثين لهذا الدين الحنيف ، وجعلنا به خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

الجانب الخلقى الذى ظهر به رسول الله ﷺ بعد الهجرة

كانت أخلاق الرسول ﷺ صورة ناطقة بالسمو والكمال ، وهى فى حقيقتها لم تتغير باختلاف الأزمان وتنوع الظروف والأحداث ، ولكن كانت تظهر منها جوانب خاصة قبل الهجرة تقتضيها الظروف . وجوانب خاصة بعد الهجرة تقتضيها الظروف كذلك ، وهى جميعها تنبثق من معين كريم وتتجه إلى غاية نبيلة . وسنتحدث الآن عن بعض النواحى الخلقية التى ظهر بها ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بعد الهجرة .

﴿ الشجاعة ﴾

روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال (كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) . وكانت شجاعته ـــ عليه السلام ـــ تقوم على الإيمان الكامل ، فلم تنقص منها الحوادث والأزمان شيئا بل كانت تزيدها ثباتا وقوة وما من شجاع إلا وله زلة سوى رسول الله ﷺ . ولقد وقف يوم حنين حينما ولى عنه المسلمون وفروا مدبرين ، وقف كالطود الراسخ يهتف فى شجاعة مؤمنة قائلا :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فاستطاع بذلك أن يعيد المسلمين إلى الإقبال بعد الإدبار ، وأتى النصر بعد الهزيمة ، وكذلك كان فى سائر حروبه وغزواته المثل الأعلى للشجاعة الفائقة ، والبطولة النادرة .

﴿ السياسة ﴾

كانت سياسة الرسول ﷺ تنبثق عن عقل راجح وتفكير سليم وخبرة كاملة بطبائع الناس

وأحوالهم ، ولا غرو فقد صنعه الله على عينه ، وأمده فى كل وقت وحين برعايته وعونه .

ولا شك أن تاريخ الرسول كله صور متتابعة وأمثلة متنوعة للسياسة الحكيمة الرشيدة التى جعلت من المسلمين فى وقت قصير أمة عظيمة الشأن قوية البنيان ، والتى يجب أن يستضىء بها الزعماء والمصلحون على توالى الأجيال والقرون .

وهذه بعض الأمثلة لتلك السياسة الرشيدة :

١- فحينما استقر الرسول ﷺ بالمدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكانت تلك الأخوة أساس التعاون بين الأنصار ـــ وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان ـــ والمهاجرين ـــ وهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ـــ وقد أثمر هذا التعاون ثمرته الطيبة المباركة فأغنى الله المهاجرين وعوضهم خير العوض عما فقدوه .

٢- ثم عقد الرسول عهدا بين المسلمين واليهود ، ويعتبر هذا العهد وثيقة سياسية رائعة ، وكان أساسه الأخوة فى السلم والدفاع عن المدينة فى وقت الحرب ، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما ، وقد أمن الرسول ﷺ بهذا العهد الجبهة الداخلية ليتفرغ [1] للأعداء خارج المدينة واستفاد المسلمون من هذا العهد فى أحرج الظروف وظهرت منه حصافة الرسول ﷺ وبعد نظره .

٣- شروط قريش فى صلح الحديبية وبعد نظره ﷺ نحوها : وقد ظن عمر رضى الله عنه أن فى ذلك إجحافا بحقوق المسلمين ولقد عاتب الرسول فى ذلك ، ولكن الأيام أظهرت حسن سياسة الرسول ﷺ فكان صلح الحديبية أساسا لفتح مكة . ولذا سمى الله الصلح بالفتح المبين . "وفيه نزل قوله تعالى : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا " إلخ .

٤- وفى يوم الفتح الأعظم وضحت السياسة الرشيدة للرسول ﷺ فقد أمكنه الله من قريش وهى العدو الألد فقابل إساءتها بالإحسان وجازاها عن ظلمها بالعفو والغفران . وقد نجحت هذه السياسة الرحيمة إذ دخلت قريش فى دين الله . وكان لها فى الفتوحات الإسلامية

---

[1] كان هذا العهد من العوامل القوية فى انتصار المسلمين فى غزوة بدر حيث كانت الجبهة الداخلية موحدة قوية ، ولولا هذا العهد لدخل المشركون المدينة بعد هزيمة المسلمين فى غزوة أحد .

نصيب كبير ، وجهاد مبرور . إلى غير ذلك من تلكم الأمثلة التى يفيض بـــها تـــاريخ الرسول ﷺ والتى هى المنهج الأقوم لدعاة الإصلاح فى كل زمان ومكان .

الوفـــاء بالعـــهـــد

كان الوفـــاء الكـــامل شأن الرسول الكريم فى جميع مواقفه فلقد عقد مع اليهود عهـــدا بعـــد الهجرة وظل وفيا بعهده حتى بدأ اليهود بالغدر والخيانة فحاق بهم مكرهم ، وعقد مع قـــريش عهدا يوم الحديبية فظل وفيا بعهده حتى بدأت قريش بالغدر وحاربت قبيلـــة خزاعـــة المحالفـــة للمسلمين فجزاهم الرسول على غدرهم وغزاهم فى دارهم ، فجاء نصر الله والفتح وخضـــعت قريش وأسلمت ، وهكذا ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى جميع مواقفه ، حتى جعل الرسول ﷺ الغدر آية النفاق ، فقال : " أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا : مَـــنْ إِذَا حَـــدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا " . متفق عليه .

حـــلمـــــه

وكان عليه الصلاة والسلام يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . وقال أنس رضى الله عنه :"خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى : أف قط ، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا شىء تركته : لم تركته ؟ " . ولما كان يقسم الغنائم يوم خيبر جاءه رجل وقـــال : اعدل يا رسول الله فقال الرسول ﷺ : " ويحك فمن يعدل إذا لم أعـــدل ؟ فقـــد خبـــت إذا وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر وأراد أن يضرب عنقه فلم يرض الرسول بذلك وغفر للرجل زلته وخطيئته" . ولما كان يوم الفتح الأعظم وأمكن الله رسوله من قريش التى بالغت فى إيذائه وسلكت كل سبيل للكيد له ونالت منه ومن المسلمين أنفسهم وأموالهم ، وقف الرسول ﷺ وأعلن العفو العام عن قريش قائلا لهم : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" .

وهكذا كان صلوات الله عليه يجزى بالإساءة إحسانا ، وبالظلم والعدوان عفوا ، وإن له الخلـــق الكريم الذى يسمو على السمو نفسه وصدق الله العظيم حيث وصفه بقوله تعـــالى : " وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ " . سورة القلم آية ٤ .

جـــوده

روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غنما بين جبلين . فرجع الرجل إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وحمل إليـــه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فـــرغ منـــها فجاءه رجل وسأله فقال : ما عندى شيء ولكن ابتع على (اشتر على حسابى) فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبى ذلك ، فقـــال رجـــل مـــن الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا فتبسم ﷺ وعرف البشر فى وجهـــه وقال : "بـــهذا أمرت" إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الثابتة عن الرسول الكريم وهى تنطق كلها بأنه أجود الناس ، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة والسحب الهاطلة .

زهـــــده

كان رسول الله ﷺ يضع أمامه قول الله تعالى : " وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ " . سورة طه آية ١٣١ . فكان ينظر إلى الدنيا على أنـــها طريق وممر لا على أنـــها غاية ومستقر ، وحسبك ما روى عن عائشة من أنـــها هى وزوجات الرسول كن يبصرن الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما يوقد فى بيوت رسول الله نار ، وأنـــهن كن يعشن الأمـــد الطويـــل علـــى الأسودين : التمر والماء ولو أراد الرسول المال لوجده بين يديه ولو شاء كنوز الأرض لأقبلـــت مسرعة إليه ، ولكن زهد فى متاع الحياة الزائل وزخرفها الحائل ليضرب المثل الأعلى أمام القرون والأجيال فى الصبر على البأساء والرضا بالقضاء . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله أولا وأخيرا .

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا

صور من حياة بعض الصحابة رضوان الله عليهم

إن فى سيرة صحابة رسول الله ﷺ مدرسة ، وأى مدرسة إنها المدرسة الكبرى للإيمان الصادق والجهاد فى سبيل الله والتضحية والفداء ، إنها مدرسة تجلت فيها مجاهدة الصحابة الفائقة التى رسمت بصماتها على صفحات الدنيا وتاريخ الوجود ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وكان أول من سطع عليه نور الإسلام فاستجاب له من أهله زوجه السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وعلى بن أبى طالب ابن عمه كرم الله وجهه ، وزيد بن حارثة مولاه ، وأم أيمن حاضنته . ومن غير أهل بيته : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وغير هؤلاء ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

أخى المسلم .. كم فى الصحابة الأبرار من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ورسوله وفى سبيل الإسلام ، ويطيب لنا أن نتناول بالذكر أولا العشرة المبشرين بالجنة الذين جمعتهم كلمة التوحيد وجمعهم حبهم لسيد البشرية رباهم فأحسن تربيتهم وهداهم إلى الصراط المستقيم وجمعهم فى حديث واحد فقال ﷺ : " أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عوف فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بن الجراح فِي الْجَنَّةِ ، وسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ " . كان هؤلاء العشرة طليعة رسول الله ﷺ فى كل معركة يقفون أمامه يدبون سهام المشركين ونبالهم عن رسول الله ، فهم المجموعة الفدائية المناضلة حربا وهم الأمثلة الوضيئة سلما .

۞ الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ۞

هو عبد الله بن أبى قحافة التيمى القرشى ولد سنة ٥٧٣ ميلادية وأمه أم الخير سلمى بنت صخر وهى ابنة عم أبى قحافة وقيل إن اسمه كان عبد الكعبة فسماه الرسول ﷺ عبد الله وكان رضى الله عنه من رؤساء قريش فى الجاهلية حبيبا إليهم على سعة من المال وكرم الأخلاق وكان من

أعف الناس ، سخيا ، حسن المجالسة ، وعالما بأنساب قريش ، تاجرا ، ذا ثروة طائلة . وكان أبو بكر أصغر سنا من رسول الله ﷺ بثلاث سنين تقريبا . وكان يكثر من زيارته فى بيت خديجة لقرب بيته من بيتها مما زاد فى توطيد الصداقة بينهما .

إسلامه :

أول ما أخبر الرسول ﷺ برسالة الله له أسرع فى تصديقه قال : بأبى أنت وأمى أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ومن هذا التصديق الذى لم يسبقه تردد قال الرسول ﷺ فى حقه : ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر ، وكنى بأبى بكر لمبادرته إلى الإسلام وسرعان ما ترك أبو بكر التجارة بعد إسلامه ليتفرغ إلى شئون المسلمين .

أثر أبى بكر فى الدعوة إلى الإسلام :

دعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من قريش ، فاستجاب له كثيرون منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . ولقد أنفق أبو بكر الكثير من ماله فى شراء المسلمين المستضعفين من الأرقاء وتخليصهم من تعذيب سادتهم ، وهو بعد ذلك يعتقهم ويمنحهم الحرية ابتغاء مرضاة الله ، نذكر من هؤلاء : بلالا الحبشى وعامر بن فهيرة وعبد الله بن مسعود وغيرهم .

ولقد أجمع أهل السيرة على أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ غزوة من غزواته . وكان ممن ثبت معه يوم أحد ويوم حنين ، وأحاديث الرسول ﷺ عن فضائل أبى بكر ومزاياه كثيرة ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " ما لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً " .

ولقد توفى رضى الله عنه سنة ١٣ هجرية ودفن إلى جوار الرسول ﷺ .

۞ الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ۞

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى ، وكنيته أبو حفص ، ولقبه الفاروق ولد بعد ميلاد رسول الله ﷺ بثلاث عشرة سنة ونشأ فى بيت اشتهر بالسيادة والشرف وتربى على الصدق

والأمانة ، وكان رضى الله عنه يحب الجد من الأمور ويأبى الدنايا ، وكان فى الجاهلية سفيرا لقريش ينوب عنها فى عظيم الأمور وكبيرها .

إسلامه :

لما أراد الله سبحانه وتعالى هداية عمر ، استجاب لدعوة نبيه ﷺ حين قال : " اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ ، بِأَبِي جَهْلٍ (عمرو بن هشام) أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ " .

فقد أسلم رضي الله عنه فى السنة السادسة من البعثة سنة ٦١٦ ميلادية ، وكان ذا نفوذ كبير ، يدل على ذلك أنه بعد إسلامه جهر النبى والمسلمون بصلاتهم وتعاليم الإسلام . نعم ، لقد كان إسلامه فتحا ونصرا كبيرا للدعوة ، وكان حدثا اهتزت له قريش ، وانقلابا أزعج أئمة الكفر وزلزل جبهة الشرك . ولقد صحب عمر الرسول ﷺ فأحسن صحبته وبذل فى نصرته أعز ما يملك ، ووقف حياته فى سبيل إعزاز الدين ورفعة شأنه ولقد كان رضى الله عنه فى المدينة بعد الهجرة شديدا على المخالفين وبخاصة المنافقين منهم . مراقبا حركاتهم حتى إذا رأى فى أحدهم سوء نية لازمه وعرَّفه مقام النبى ﷺ . وشهد مع الرسول ﷺ كثيرا من غزواته وكان ممن ثبت معه فى أعنف المعارك هولا وفزعا ، مثل : أحد وحنين .

إلهام عمر :

كان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : " لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ " [1] . وقد أثر أنه وافق الوحى فى كثير من أحكام التشريع ، ونذكر على سبيل الإيضاح أحد هذه الموافقات وهى تحريم الخمر: نزلت آيتان فى الخمر لتوضيح أضرارها وأثرها فى سلوك الإنسان تمهيدا لتحريمها تحريما قاطعا ، وهما : قوله تعالى : " يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ " . [2]

---

[1] محدثون : ملهمون يجري الصواب على ألسنتهم .

[2] سورة البقرة آية ٢١٩ .

وقوله تعالى" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ " [1].

ولكن عمر الملهم تاقت نفسه إلى التحريم القاطع فدعا ربه فقال : " اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا " ، فنزل قوله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ " . [2].

وهذه الآية هى آية التحريم التى بها انتهى المسلمون عن شربها فى كل حالة ووقت . إلى غير ذلك من المواقف التى تدل على نفاذ بصيرته وحسن رأيه .

عمر الخليفة :

كان رضى الله عنه لأبى بكر صاحبا مخلصا ، ومشيرا أمينا ، ولما تولى الخلافة منَّ الله على المسلمين بالنصر على الفرس والروم ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، واستجابت شعوب البلاد المفتوحة . لما رأوا من عدل أمنهم على أنفسهم ، ومساواة نعموا بها بعد حرمان فعاشوا فى رغد من العيش لم يتذوقوه منذ آلاف السنين . فرضى الله عنه ، ورضى عن جهاده فى سبيل الإسلام ، ورضى عن أعماله المجيدة التى صانت المجتمع من العوز ، والفقر ، وبهرت الساسة والمصلحين .

مقتل عمر :

ما كان أحد يظن أن تنتهى حياة ابن الخطاب بمثل ما انتهت إليه ـــ وهو العادل الورع ـــ خرج يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية ليصلى بالناس صلاة الفجر و لم يكد يؤم الناس حتى طعنه "فيروز" الملقب بأبى لؤلؤة عدة طعنات بخنجر أدت إلى وفاته وفاضت روحه الطاهرة إلى ربها ، ودفن إلى جوار أبى بكر الصديق ـــ رضى الله عنهما ـــ .

۞ عثمان بن عفان ۞

"ذو النورين" رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وصهر الرسول الكريم . ولقد ولد رضى الله عنه بالطائف بعد ولادة الرسول ﷺ بخمس سنين ، ونشأ فى سعة من العيش

[1] سورة النساء آية ٤٣ .

[2] سورة المائدة آية ٩٠ .

إذ كان أبوه صاحب تجارة واسعة رابحة ، فقوافله تحمل السلع التجارية من بلاد العرب إلى بلاد الشام . ولما مات أبوه ترك ثروة ضخمة اتجر فيها عثمان ، فدرت عليه أموالا كثيرة أعانته على القيام بأعمال جليلة من البر والخير . وكان لطبيعة بلاد الطائف وجمال جوها أثر كبير فى حياة عثمان جعله حلو الشمائل محبوبا لعارفيه ، وقد أجمع واصفوه على صفتين ملازمتين له هما : الحياء والجمال .

إسلامه :

روى أن عثمان كان مع أبى بكر الصديق فى مجلس ، فأخذ رضى الله عنه يشرح له تعاليم الإسلام السمحة ، وأسس الدعوة الإسلامية الجديدة ويقول له : "ويحك يا عثمان ، والله إنك لرجل حازم عاقل ، وما يخفى عليك الحق من الباطل ، فما هذه الأوثان؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضر ؟ " ، قال : بل والله إنها لكذلك . فدعاه أبو بكر للقاء النبى ﷺ ، فلما لقيه عرض عليه الإسلام . فأسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فكان من السابقين الأوليين .

صلته بالنبى ﷺ :

ولما أسلم عثمان أحبه الرسول ﷺ ، وتوثقت العلاقات بينهما بزواجه من السيدة "رقية" بنت الرسول الكريم ، ولما ماتت تأثر لوفاتها ، واشتد حزنه عليها و لم ير بعدها إلا مهموما ، ورآه النبى ﷺ فسأله : "مالى أراك مهموما ؟ " فقال : وهل دخل على أحد ما دخل علىَّ يا رسول الله ؟ لقد انقطع ظهرى ، وانقطع الصهر بينى وبينك . فطيب النبى ﷺ خاطره وزوجه أختها "أم كلثوم" ، وبقيت معه إلى أن توفيت ، فقال له رسول الله ﷺ : " لو كان لنا ثالثة لزوجناك" ، ومن أجل ذلك سمى ذو النورين . وقد هاجر عثمان رضى الله عنه إلى الحبشة غير مهتم بما تتعرض له تجارته من كساد ، ثم هاجر إلى المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ .

أثره فى نصرة الإسلام :

لقد وكل شئون تجارته الواسعة لعملاء يقومون عليها وأعد نفسه وماله فداء للرسول ﷺ ونصرة الإسلام ، و لم تتطلب الدعوة الإسلامية مدا من مال أو سلاح إلا نهض به ، فكان أجود

الأمة نفقة فى سبيل الله .

شكا المهاجرون تغير الماء فى المدينة ، وكان فيها بئر صالحة للشرب ملكا ليهودى يبيع ماءها بثمن مرتفع ، فاشتراها عثمان وجعلها للمسلمين . ولما دعا الرسول ﷺ المسلمين لغزوة تبوك وأخذ يرغب فى إعداد جيش لها ، وكان الوقت وقت عسرة وضيق ، نهض عثمان رضى الله عنه وبادر إلى بذل ماله ، وقدم للمجاهدين الأطعمة والخيل والإبل ، يروى أنه تبرع بتسعمائة وخمسين فرسا ، وحمل ألف دينار فى كمه نثرها فى حجر رسول الله ﷺ . وهذا هو عمل عثمان رضى الله عنه لم يقصر عن معونة يستطيعها فى عسرة أو مجاعة و لم يضارعه فى جوده أحد من أقرانه ، فكان بحق أكرم الأغنياء وأغنى الكرماء .

خلافة عثمان :

لما فرغ المسلمون من دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سارع أهل الشورى الذى عينهم إلى عقد اجتماع للنظر فى اختيار الخليفة وتحدث كل منهم شارحا وجهة نظره ، حتى اهتدوا بفضل الله إلى اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين ، وذلك فى سنة ثلاث وعشرين للهجرة وكان أول عمل اهتم به هو نصحه إلى الولاة والقواد وعمال الخراج بتقوى الله فى أعمالهم ، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعطف على أهل الكتاب ، وجمع الخراج بالعدل والإنصاف .

أثره فى الخارج :

تابع رضى الله تعالى عنه سلسلة الفتوحات التى قام بها المسلمون فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى أفريقيا وآسيا . فأرسل الجيوش حاملة راية الإسلام ، رافعة لواء التوحيد حتى دوخ الرومان والفرس . وجعلهم يرون بأعينهم أشلاء دولتيهما تتمزق ، ودنيا مجدهم تتقلص ، وأصبحت راية الإسلام ترفرف على شمال أفريقيا وأقاليم واسعة فى آسيا ، و لم يبق للروم من أمل فى النصر إلا ميدان البحر الأبيض المتوسط ، ولكن الأمل تبدد عند لقاء الأسطول الإسلامى بقيادة عبد الله بن أبى سعد بن أبى السرح للأسطول الرومانى ، فقد انتصر المسلمون وبسطوا سلطانهم على بعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك أصبح باقى

تراث الفرس الواسع وملكها العريض ملكا للدولة الإسلامية ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

جمع القرآن الكريم :

ومن أجل الأعمال التى امتاز بـــها تاريخ عثمان رضى الله عنه تدوين مصحف يقرؤه المسلمون فى البلاد الإسلامية . وسبب ذلك يرجع إلى أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه سمع فى غـــزوة من الغزوات اختلافا فى قراءة القرآن يوشك أن يؤدى إلى أخطر فتنة فى كتاب الله عز وجـــل ، فأهل كل إقليم يقرءون قراءة ويتعصبون لها مما أزعج حذيفة . فلما عاد إلى المدينـــة أســـرع إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه وأشار عليه بتدوين مصحف يقرؤه جميع المسلمين ، فجمع عثمان كبار الصحابة [1] وأخبرهم بما أشار حذيفة ، فوافقوه . وأرسل عثمان رضى الله عنه إلى السيدة حفصة زوج الرسول ﷺ وابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يطلب منها الصـــحف الـــتى كانت فى عهد أبى بكر وأودعت عندها ، فسارعت بإرسالها إليه ، فعرضها على مـــا يحفظـــه وعلى سائر الحفاظ من الصحابة . ثم أمر بنسخها فى المصاحف ومحو كل ما عـــداها وأرســـل نسخا من المصحف الجديد إلى الأمصار للقراءة فيه دون غيره . ونعم فعل عثمان فقـــد جمـــع القرآن الكريم ووحد قراءته حتى لا يتطرق التحريف إليه كما تطرق إلى الكتب السابقة ، وهذا من أجلِّ الأعمال شأنا وأعظمها فائدة لصيانة دين الإسلام ، فرضى الله عنه وأجزل له المثوبـــة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا .

۞ الإمام عـــلى بـــن أبى طـــالـــب ۞
كرم الله وجهه

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم رسول الله ﷺ ، وزوج ابنته فاطمـــة الزهراء . ولد قبل البعثة بعشر سنوات ، وكان أبوه كثير الأولاد ، فلما ، أصاب القحط قريشـــا أشار محمد ﷺ على عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش وتكاليف الحياة بأخـــذ

[1] منهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص .

بعض ولده ليقوم بتربيتهم والإنفاق عليهم تخفيفا عن أبى طالب ، وذهب محمد والعباس إلى أبى طالب وعرض عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس إليه جعفرا وضم محمد ﷺ عليا ، فتربى فى أحضان الرسول الكريم ونعم بالقرب منه وظفر بعطفه وتمتع برعايته .

إسلامه :

لما بعث الله سبحانه وتعالى النبى محمدا ﷺ إلى الناس هاديا وبشيرا كان على بن أبى طالب أول من آمن به بعد السيدة خديجة رضوان الله عليهما ، فملأ الدين الإسلامى قلبه ، و لم يكدر صفاء نفسه عقيدة الشرك ، والوثنية ، لأنه نما فى بيت أشرفت عليه العناية الإلهية ، وشع منه نور الهداية المحمدية .

مآثره فى مكة :

استخلفه النبى ﷺ حين هاجر إلى المدينة على ما كان عنده من ودائع يردها إلى أصحابها ، وأمره أن ينام فى مكانه الليلة الخالدة الحاسمة التى اتفقت فيها قريش على قتل النبى ﷺ ، فضرب بذلك أروع الأمثال فى التضحية والإيثار .

على فى المدينة :

ربط الرسول ﷺ بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار فآخى بينهم وضم لكل أنصارى مهاجرا ، ثم قال لعلى رضى الله عنه : " أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " . وقد شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها ، فأبلى بلاء عظيما فى ميادين الجهاد ، وقد ترك آثارا فى نصرة الإسلام لا تبلى على كر الدهور .

شجاعته :

كان على رضى الله عنه شجاعا لا يهاب قرنا من الأقران ، وعرف بأنه لم يصارع أحدا إلا صرعه ، ويصيح الصيحة فيطير لها قلب الشجاع .

(ا) خرج عمرو بن ود فارس جيش المشركين فى موقعة الخندق يختال بنفسه وهو يناد فى جيش المسلمين : من يبارز؟ فصاح على كرم الله وجهه : أنا له يا رسول الله ، فقال النبى ﷺ : " إنه عمرو بن ود ، أجلس " ، ثم عاد عمرو ينادى ، وأخذ يؤنب المسلمين قائلا : أين جنتكم التى

زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ فقال على مرة بعد مرة يلح فى الخروج لمبارزة عمرو بن ود ، حتى أذن له الرسول ﷺ ، فمشى إليه فرحا بهذا الأذن ، فنظر إليه عمرو واستصغره وأنف أن يبارزه ، وقال يا ابن أخى ، من أعمامك من هو أسن منك ، وإنى لأكره أن أريق دمك ، فقال له على : لكنى لا أكره أن أريق دمك ، فغضب عمرو وأهوى بسيفه على عاتق على ولكن عليا اتقاه بدرقته [1] ، وضربه على فسقط ونهض ، ثم تضاربا وما انجلت المعركة إلا وعمرو صريع ، وعلى يقول "الله أكبر ، الله أكبر" .

(ب) ولما كان المسلمون يقاتلون اليهود فى خيبر و لم يكن بد من اقتحام حصونهم المنيعة وكسر شوكتهم ، قال الرسول ﷺ : " لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ " فتمناها المسلمون جميعا ، وفى الصباح قال رسول الله ﷺ : " ادعوا لى عليا " فأتاه على وبه رمد ، فمسح عينه ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى تدل على أن عليا كان الساعد الأيمن للرسول ﷺ فى المدينة ، كما كان الابن البار فى مكة وكان رضى الله عنه من أعلام الصحابة وأولى الرأى ، حتى كان أبو بكر يأخذ برأيه لما يعهد فيه من الذكاء والفقه . وكان عمر يقول "إن عليا أقضانا" ، ويحيل عليه ما استعصى من المسائل ويقول للسائل : ما أجد لك إلا ما قال على ، كما قال : إذا أشكل الأمر : قضية ولا أبا حسن لها . وبالجملة ، فقد أعان الخلفاء برأيه وجاملهم مجاملة كريمة فى حياتهم وبعد مماتهم .

قتل على بن أبى طالب سنة ٤٠ هجرية :

وبينما كان على يعانى الشدائد من الخارجين عليه . إذ دبر الخوارج مؤامرة لقتل على ومعاوية وعمرو بن العاص فهم سر شقاء المسلمين فى نظرهم . وندبوا لهذا الجرم الشنيع ثلاثة ، فأما معاوية وعمرو بن العاص فقد أخطأهما التدبير ، وأما على بن أبى طالب فضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فى رأسه وقت أن كان ينادى لصلاة الفجر فى المسجد . ومات رضى الله عنه فى السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ .

---

[1] يقال المترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب : درقة يتقى بها المحارب ضربات العدو .

من صفاته ومآثره :

لقد اتصف رضى الله عنه بالخصال الكريمة ، فاشتهر بالمروءة والوفاء واحترام العهود ، والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، يأكل الشعير وتطحنه له امرأته السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ . روى عن بعض أصحابه أنه قال : دخلت على "على" رضى الله عنه فإذا بين يديه حامض وكسر يابسة ، فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل من هذا ؟ فقال لى : كان رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا ، ويلبس أخشن من هذا ، وأشار إلى ثيابه ، فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به . وكان رضى الله عنه يسوى بين الناس ولا يفرق فى العطاء بين عربى أو عجمى ، أو بين قريب وبعيد ، ولا يعين فى المناصب إلا من وثق فى دينه وأمانته ، وإليه يرجع الفضل فى تنظيم الشرطة ، إذ بهم يستتب النظام ويسود الأمن ، وتشيع الطمأنينة فى صفوف الرعية .

عِلْمُ (على) :

اتفقت كلمة الجميع على علمه وفقهه وبلاغته ، فقد كان رضى الله عنه المرجع فى كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن الكريم : يقول كرم الله وجهه : "سلونى عن كتاب الله تعالى ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم بنهار ، بسهل أم بجبل " .

وكان مضرب الأمثال فى الفصاحة ، يلقى القول فيأخذ بمجامع القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس، وله من جوامع الكلم ما يدل على العلم الغزير والأدب الوفير ، وهاك بعض ما أثر عنه : " أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه" .

وبوفاته طويت صفحة من صفحات العلم والورع والشجاعة والتضحية والإيثار ، وانتهى عهد الخلفاء الراشدين .

۞ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ۞

هؤلاء صحابة الرسول ﷺ كانوا عدة لبناء كيان الصرح الإسلامى الكبير على هذه البسيطة فكانوا مصابيح نور وهداية جاهدوا فى سبيل الله بقلوبهم العامرة بالإيمان ، فبسطوا فى الدنيا حضارة واستقرارا وطمأنينة ، ليتنا نترسم خطى هؤلاء الأبرار فنستلهم من ماضيهم المشرق ما ينقصنا فى جهادنا فى سبيل الله وإعلاء كلمته .

إســـلامه :

ونسوق الحديث عن صحابى جليل أسلم وهو إبن أحد عشر عاما ، وكان من أوائل شـــباب المسلمين ، إنه طلحة بن عبيد الله التيمى بن تيم بن مرة بن كعب ، فهو يجتمع مع رســـول الله ﷺ فى مرة ، وعُذِّب طلحة فى إسلامه إذ كان له أخ أكبر ظل على جاهليته ووثنيته فكان يصده عن دينه ويلاحقه بالأذى فى كل جوانب حياته ويمعن فى تعذيبه ليهجر دين محمـــد ، ولكـــن طلحة لم يأبه بهذا الأذى فكان يشد وثاقه بالحبال فيحول بينه وبين الصلاة ، وتركه أخوه حين يئس منه حتى أصبح طلحة واحدا ممن يعتز بهم رسول الله ﷺ وواحدا من الدعاة الذين يعلمون الإسلام وفق تعاليم رسول الله ﷺ .

وأذن الرسول بالهجرة إلى المدينة وطلب من طلحة أن يكون مع أفواج المهـــاجرين ، وانتظـــر المسلمون وفيهم طلحة وصول الرسول من بعدهم إلى المدينة ، وجاء رسول الله ﷺ ومن يومها طلحة لا يريد الابتعاد عن رسول الله ﷺ ، واشترك طلحة مع الرسول ﷺ فى كافة الغـــزوات وحينما بعثه الرسول ﷺ فى مهمة سرية مع أخ له وهو سعيد بن زيد وجاءت غـــزوة بـــدر أم الأبطال و لم يشهدها فأحس بالألم والحزن يعصر قلبه ، وطمأنه الرسول وصاحبه أن لهما مثـــل الذين اشتركوا فيها من الأجر . وجاءت غزوة أحد وجاء دور طلحة حين انـــهزم المســـلمون وثَبَتَ سيد البشرية فوقف طلحة بجانبه بنفسه يتلقى عنه النبل حتى شلت إصبعه ، ووقع الرسول ﷺ فى حفرة من الحفر فحمله على ظهره طلحة وصعد به على ربوة عالية ، وقد أصيب طلحة فى هذه الغزوة سبعين جرحا تناثرت فى جسمه وسالت دماؤه حتى غاب عن وعيه وبلل الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وجهه بالماء حتى أفاق وهو يسأل عن الرسول فقال له أبو بكر هو بخـــير أرســـلنى إليك فقال " الحمد لله كل مصيبة بعده جلل " .

عن عائشة رضى الله عنها عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد يقـــول : ذلك كله كان يوم طلحة ، وفى يوم حنين كانت صرخة طلحة فى المعركة تهز القلوب وتبعـــث الرعب فى نفوس الأعداء حتى ليقول الرسول ﷺ : " إنـــها فى الجيش خير من مائة رجـــل " ، فى يوم حنين خرج إليه من الصفوف عشرون مبارزا من أقوى الأعداء صرعهم جميعا طلحة بن

عبيد الله وهو يبعث صوته مهللا الله أكبر ، وينتشر السلام وقرأ الرسول ﷺ يوما لأصحابه قوله تعالى : " مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ " . ثم قال ﷺ وهو يشير إلى طلحة : " من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة " .

ولطلحة مواقف مشرفة وصنائع حفظها له تاريخنا الإسلامى ، وإن هو جاهد بروحه كذلك قد جاهد بماله فلما كانت غزوة تبوك والمسلمون فى ضيق وعسر أنفق فيها ما لم ينفقه غيره فقال له رسول الله ﷺ : " ما أنت يا طلحة إلا فياض " فلذلك قيل له الفياض .

قال الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يومئذ أوجب طلحة حين صنع يوم أحد ما صنع " .

طلحة الصحابى المجاهد الصحابى الزاهد ، باع طلحة أرضا بثمن مجز وجاء الثمن فكان كومة كبيرة من المال فنظر إليها وبكى طويلا ثم قال لمن حوله : " إن رجلا يثبت هذه الأموال فى بيته ولا يدرى ما يطرق من أمر المغرور بالله " ، ودعا بعض أشخاص من حوله فحملوا معه أمواله ومضى يوزعها فى شوارع المدينة حتى لم يبق منها شئ . وقالت زوجته : دخلت على طلحة يوما فرأيته مهموما فسألته ما شأنه فقال المال الذى عندى قد كثر حتى أهمنى وأكربنى ، فقلت له وما عليك قسمة ، فنهض ودعا الناس وأخذ يقسمه حتى ما بقى منه درهم .

وفاته :

هذا واحد من صحابة رسول الله كان له البذل والعطاء والجهاد فى سبيل الإسلام إنه طلحة بن عبيد الله الذى اختاره الموت فى موقعة الجمل عام ٣٦ هجرية . رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه . وكان واحدا من العشرة المبشرين بالجنة .

۞ سعيد بن زيد رضي الله عنه ۞

تبدأ قصة هذا الصحابى الجليل قبل أن يولد بدأت بوالده الذى ثار على الأصنام قبل ظهور الإسلام ، وثار على قومه لأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ، وصار بين الأديان فلم يتخذ

اليهودية دينا لأن أصحابـــها يأبون أن يدخل غيرهم فيها ، و لم يتخذ النصرانية عقيدة لأنه ناقش رهبانـــها وعلماءها فوجد أن طبيعته تأباها وإن كان صاحبه الذى خرج معه ليبحث عن ديـــن جديد قد اتخذها دينا له ، وصاحبه هو ورقة بن نوفل بن عم السيدة خديجة رضى الله عنـــها ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل والد هذا الصحابى الجليل يريد أن يعود إلى دين أبيه الأول إبراهيم عليه السلام و لم يكن الرسول ﷺ قد بعث ، و لم يكتف زيد بخروجه عن دين آبائه وأجـــداده الذين غيروا وبدلوا وسجدوا للأصنام وترهاتـــها بل أعلنها صريحة فى ندى مكة وبين قـــريش وقالها (ما منكم اليوم أحدا على دين إبراهيم غيرى) . لقد أبصره الناس كثيرا وهو يرقب غروب الشمس فإذا غربت استقبل القبلة فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول : (هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجرا ولا أصلى له ولا أذبح له ولا آكل ما ذبح ولا أستقسم بالأزلام ولا أصـــلى إلا إلى هذا البيت حتى أموت) .

وكان يحج فيقف بعرفة ويلبى فيقول (لبيك لا شريك لك ولا ند لك) ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول لبيك تعبدا لك مرقوقا ، وحدث صاحبا له اسمه عامر فقال : (إنى أنتظر نبيـــا مـــن إسماعيل يبعث ولا أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام) ، قال عامر : (فلما تنبأ رسول الله أسلمت وأخبرته بقول زيد بن عمـــرو وأقرأته منه السلام فرد الرسول ﷺ وترحم عليه وقال : " قد رأيته في الجنة يسحب ذيـــولا") .

وسئل عنه الرسول ﷺ فقال : " يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً " . وكان الصحابة يترحمون عليـــه ويستغفرون له من رسول الله ﷺ .

ويذكر الصحابى سعيد بن زيد والده بقوله إن الآية الشريفة من سورة الزمر نزلت فيه وفى أمثاله : " وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ".

يقول سعيد رضي الله عنه نزلت فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يوحدون الله عز وجل .. زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى . أولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبى ، وسعيد بن زيد هو زوج فاطمة بنت الخطاب ، وعمر بن عم أبيه ، بل أكثر من هذا لا ننسى أن سعيدا

وزوجته كانا سببا فى إسلام عمر .

قال الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ : " كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينما أنا يوما فى يوم شديد حره بالهاجرة فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر من بيتك ، قلت : ما ذاك ؟ ، قال : أختك قد صبأت ، فرجعت مغضبا وكان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلان فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ ، قلت ابن الخطاب ، وكان القوم جلوسا يقرؤون القرآن فى صحيفة معهم فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت فقلت لها يا عدوة نفسها قد بلغنى أنك صبوت فأرفع شيئا فى يدي فأضربها به فسال الدم ، فرأت المرأة الدم فبكت ثم قالت : يا بن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت ، فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فإذا كتاب فى ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه ، فقالت لا أعطيكه لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون ، فلم أزل بها حتى أعطتنيه فقرأت فيه قرآنا فتأثرت به وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فخرج القوم يتبارون بالتكبير استبشارا ثم قالوا : يا بن الخطاب أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين فقال : " اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ ، بِأَبِي جَهْلٍ (عمرو بن هشام) أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ " وأنا أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ، فأبشر فى دار هذا الصحابى الجليل وزوجته فاطمة بنت الخطاب أسلم الفاروق عمر .

وكان سعيد بن زيد واحدا من المخلصين لله ورسوله إذ وضع ماله وما يملك فى سبيل الدعوة المحمدية وفى سبيل العقيدة إذ أطعم فقراء المسلمين حتى نفق ماله وأخلص لله فاستحق أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة ، وشهد مع رسول الله الغزوات كلها مجاهدا فى المقدمة أمام حبيب الأمة يدرأ عنه الأذى ويفديه بنفسه خوفا عليه من مكروه ، وقد وثق به الرسول ﷺ ثقة لا حد لها فبعثه يستخبر على قريش فى طريق الساحل قبل غزوة بدر ، كان لا عمل لسعيد إلا الجندية

ولا عمل له بعد وفاة المصطفى ﷺ إلا الجندية .

كان زاهدا ، ما فكر يوما أن يقتنى بستانا أو حديقة ، وما وقع عليه الاختيار فى الجهاد إلا خرج محاربا فقد شهد اليرموك وحصار دمشق ، ولما انتصر المسلمون فى الشام وفتحوا دمشق أمره أبو عبيدة بن الجراح أن يتولى أمرها وأن يكون واليا عليها ثم تركه متوجها إلى الأردن فنزلها معسكرا فيها وبعث عليهم خالد بن الوليد وزيد بن أبى سفيان فلما بلغ ذلك سعيد بن زيد تحركت طموحاته المتواضعة إلى الجندية من جديد لأنه يريد لأن يرزقه الله الشهادة وهو مقيد بأمر القائد أن يبقى فى دمشق واليا عليها ففكر كثيرا فى أن يتخلى عن مهمة الوالى ليكون جنديا من جديد من سائر المجاهدين فى سبيل الله وكتب إلى أبى عبيدة رسالة يقول فيها : " أما بعد : فإنى ما كنت لأوثرك وأصحابك الجهاد على نفسى وعلى ما يدنيني من مرضات ربى ، فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى عمالك من هو راغب إليك مني فإنى قادم إليك وشيكا إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم " . فلما وصلت الرسالة إلى أبى عبيدة قال لى اتركها ثم دعا يزيد بن أبى سفيان فقال اكفئني دمشق .

هذا هو سعيد بن زيد الجندى المجاهد فى رضاء الله ورسوله غنى بكفاحه فى سبيل عقيدته وما يؤمن به . ظل ذلك الجندى الذى لا ينقطع عن الجهاد لحظة حتى خنق سبعا وسبعين عاما من العمر فآثر الإقامة فى مدينة رسول الله ﷺ والقرب من مسجد رسول الله يصلى فيه أوقاته كلها وإلى ما بعد السبعين ظل ملتزما على العبادة ، ورحل سعيد إلى جوار ربه ولم يترك إلا الذكر الحسن والمثل والقدوة فكان واحدا من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

۞ الزبير بن العوام رضي الله عنه ۞

من أعلام الإسلام الزبير بن العوام بن خويلد ، من بنى أسد ، وهو حوارى [1] رسول الله ﷺ وابن عمته السيدة صفية بنت عبد المطلب وابن أخ السيدة خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ﷺ ، مات أبوه وهو صغير ، فاهتمت به أمه السيدة صفية رضى الله عنها ، وضاعفت من

[1] الحوارى : الناصر .

رعايتها له فنشأ نشأة كريمة ، وعرف منذ الصغر بإيثار الحق وإنصاف المظلوم ، وقد صاهر أبا بكر رضى الله عنه فتزوج بأسماء بنت الصديق ، وأنجب منها عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

إسلامه :

لما ظهر الإسلام كان الزبير بن العوام رضى الله عنه فى مقدمة الذين أسلموا بدعوة أبى بكر رضى الله عنه ، واعتنق الإسلام وهو فى ميعة الصبا ، حتى قيل أنه : أسلم وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فكان من السابقين الأوليين . وقد احتمل الكثير من الأذى فى سبيل عقيدته الدينية حتى روى أن عمه كان يعلقه فى حصير ، ويدخن عليه النار ليرجع إلى عبادة الأصنام ولكنه أبى إلا التمسك بالدين القويم واضطر إلى الهجرة مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، و لم يتخلف عن غزوة غزاها الرسول ﷺ .

جهاده فى سبيل الله :

كان رضى الله عنه شجاعا مقداما ، بايع الرسول ﷺ على الموت فى أحد ، وكان يحمل إحدى رايات المهاجرين يوم فتح مكة ولكثرة المعارك التى خاضها كان جسمه مملوءا بضربات السيوف ، ولقد قال له رجل : رأيت آثارا ما رأيتها بأحد قط ؟ ، قال : أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله ﷺ . وقد قيل إن الزبير أول من سل سيفا فى سبيل الله عز وجل ، ومدحه (حسان بن ثابت) شاعر رسول الله ﷺ بقوله :

فكم كربة ذب الزبير بسيفه عن المصطفى والله يعطى ويجزل

لهذا أدناه النبى ﷺ ، وقربه منه وأحبه حبا شديدا وقال : " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ " . وأحب الزبير العزلة بعد وفاة رسول الله ﷺ وعكف على التجارة التى درت عليه الربح الوافر ولكنه رضى الله عنه لم يحفل بتملك الأموال حين كان يدعوه داعى الجهاد فى سبيل الله تعالى .

بطولته :

كان الزبير رضى الله عنه من أبطال العرب المعدودين ، شجاعا مقداما ، طلب عمرو بن العاص ، وهو يفتح مصر مددا من الخليفة عمر رضى الله عنه فأمده بأربعة آلاف وأربعة من القواد

الواحد منهم بألف . يقول عمر رضى الله عنه لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة من كبار الصحابة كل واحد منهم بألف رجل وهؤلاء الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد . ولقد تجلت بطولة الزبير رضى الله عنه أمام حصن بابليون وضرب للمسلمين أروع الأمثلة فى التضحية حين أقبل فى ظلام الليل فى كتيبة من المجاهدين آزرته ووضعوا سلما على الحصن وهو من أمنع حصون الروم فى مصر ثم صعد الزبير على السلم حتى صار بأعلى السور وأخذ يكبر وسيفه يلمع بيده . فتبعه أصحابه حتى صاروا إلى جانبه وكبروا معه ثم نزلوا إلى داخل الحصن وعمد الزبير إلى بابه ففتحه ودخل المسلمون واستولوا عليه بعد أن هرب حراس الحصن فزعا وخوفا . وبذلك مهد هذا الجندى الباسل للمسلمين على ضفاف النيل .

مكانتــه :

اختاره عمر رضى الله عنه من أصحاب الشورى الستة لينتخبوا من بينهم خليفة ، لأنه أجدر بهذا الأمر وتوفى الرسول ﷺ وهو عنهم راض . وهذا الترشيح من عمر بن الخطاب يدل على منزلته رضى الله عنه بين الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد حزن على رضى الله عنه لمقتله ـــ على يد عمرو بن جرموز بناحية البصرة فى جمادى الأولى سنة ٣٦ هـ ـــ وأخذ سيفه بيده وقال : سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ .

صفاته :

كان رحمه الله كما قال عمر رضى الله عنه من أركان الدين وأول رجل سل سيفه فى سبيل الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان واسع الثراء ، جوادا فى الإنفاق على الفقراء والمساكين ويروى أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فكان يقسمه كله فى ليلة ، ثم يقوم إلى منزله وليس معه شيء منه وقتل و لم يترك درهما ولا دينارا ، ومات رضى الله عنه فقيرا فى الدنيا غنيا فى الآخرة . وصدق حسان بن ثابت رضى الله عنه إذ قال :

له من رسول الله قربى قريبة ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل [1]

---

[1] مؤثل : أصل .

۞ عبد الرحمـــن بـــن عوف رضي الله عنه ۞

ومن أعلام الإسلام النابـــهين (عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة القرشى) ولد بعـــد عام الفيل بعشر سنين ، وعاش فى مكة معقل عبادة الأوثان ، ولكنه مع ذلك كان عزوفا عـــن أباطيلهم زاهدا فى لهوهم يقول الحق يمقت الباطل حتى روى أنه حرم الخمر علـــى نفســـه فى الجاهلية .

إســـلامه :

أسلم على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فكان من السابقين الأولين الذين اعتـــز بـــــهم الإسلام ، ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين ، هاجر إلى الحبشة مضحيا فى سبيل الله بنفسه وماله ، ثم هاجر الهجرة الكبرى إلى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ إليها .

جهاده :

اشترك عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مع الرسول ﷺ فى جهاده وأبلى البلاء الحسن وثبت مع النبى فى أحد وكان يدافع عن الرسول ﷺ ويرمى عنه النبل ، وشهد المشاهد كلها فكان من أبطال الإسلام المجاهدين .

منـــزلته :

كان رضى الله عنه مثاليا فى كل شىء ، فقيها فى الدين بصيرا بالكتاب والسنة ، أمينا مجاهدا بماله ونفسه ، ذا مكانة كبيرة ومنـــزلة عظيمة بين الصحابة ، فهو أحد الستة الذين توفى رســـول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وقد كان أحد الستة الذين رشحهم عمر رضى الله عنه لاختيار خليفـــة منهم . روى أن رسول الله ﷺ قال لأَزْوَاجه : " إِنَّ الَّذي يَحْنُو عَلَيْكُنَّ مِنْ بَعْدي لَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الْجَنَّة " . فكان عبد الرحمن رضى الله عنه يخرج بـــهن ويحج معهن ، وذلك شرف كبير له رضى الله عنه ويقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "عبد الرحمن أمين فى السماء ، أمـــين فى الأرض" . وكان رضى الله عنه من أولى الرأى ولذلك لما مرض أبو بكر رضى الله عنه وأراد جمع كلمـــة المسلمين على خليفة ، أرسل إلى عبد الرحمن فسأله عن عمر بن الخطاب ، فقال : هو أفضـــل

والله من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة . وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعدم دخول الشام أثناء الطاعون الذى انتشر فيها وقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إِذَا سَمِعْتُمْ بِهذا الوباء بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ " [1] واطمأن عمر لهذا الحديث وعمل بما ورد فى الحديث الشريف . وعزل البلد الموبوء عن البلاد خشية العدوى وهو ما نسميه فى عصرنا الحاضر (الحجر الصحى) .

إنفاقه فى سبيل الله :

كان رضى الله عنه ذا تجارة واسعة ومال وفير ، فكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وقد عرف بأنه من أكثر الناس سخاء وبرا على المحتاجين والفقراء ، روى عن أنس بن مالك قال : بينما السيدة عائشة فى بيتها إذ سمعت صوتا رجت له المدينة ، فقالت ما هذا ؟ ، فقيل : عير عبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام ، وكانت سبعمائة راحلة . فقالت السيدة عائشة : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْوًا " [2] فبلغ ذلك عبد الرحمن فأتاها رضى الله عنها فسألها عما بلغه فحدثته ، قال : إنى أشهدك أنها بِأَقْتَابِهَا وَأَحْمَالِهَا [3] فى سبيل الله عز وجل . وكان من السابقين إلى تجهيز جيش العسرة ، وتصدق مرة بنصف ماله وحمل خمسمائة راحلة فى سبيل الله عز وجل . ولرقة قلبه وشدة عطفه على الضعفاء ، ومشاركته الفقراء فى الإحساس بآلامهم ، أولع بعتق الرقاب وتحرير العبيد ، فقد أثر عنه أنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، وهذا من الأعمال الإنسانية والخدمات الاجتماعية التى رغب فيها الدين الإسلامى الحنيف وأعد للذين فكوا رقاب ما ملكت أيمانهم جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

أثر ابن عوف فى انتخاب عثمان :

لما طُعن عمر رضى الله عنه ورشح ستة لانتخاب خليفة من بينهم اجتمعوا وأخذوا يتشاورون ،

---

[1] ولا يتعارض هذا مع حديث (لا عدوى) لأن معناه لا عدوى مؤثرة بنفسها .

[2] أى زحفا على يديه وبطنه .

[3] قتب الجمل رحله وهو يوضع على ظهر البعير .

وحين اشتد الجدال . تدارك عبد الرحمن الأمر باقتراح هدأ من حدة الجماعة واستطاع بحكمته أن يتغلب على الخلاف فقال للمجتمعين : " أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم" . قدر عبد الرحمن هذه المهمة التى كلف بها وقداسة الأمانة التى حملها لله والمسلمين فى هذا الظرف الدقيق ، فأخذ يلتقى بأصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم فيمن يصلح أن يكون خليفة ، يسألهم فرادى ومجتمعين سرا وعلانية ثم انطلق إلى المسجد ، واجتمع بالمسلمين بعد صلاة الصبح وقال لهم : إنى نظرت وشاورت ثم رفع رأسه إلى سقف المسجد ، ويده فى يد عثمان وقال ثلاثا : اللهم اسمع واشهد ، ثم بايع عثمان ، فازدحم الناس لبيعته خليفة للمسلمين . وهذا يعتبر من المواقف الرائعة ، والسياسة الحكيمة الناجحة ، التى سلكها ابن عوف لجمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفوفهم .

وفاته :

مات هذا الصحابى الجليل سنة ٣١ هجرية بعد أن عاش ٧٤ سنة قضاها فى نصرة الإسلام ، والبر بالفقراء والمحتاجين وعتق الرقاب . فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أعظم الجزاء .

۞ سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ۞

هو الصحابى الجليل سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب القرشى ، أبو اسحاق بن أبى وقاص أحد السابقين الأولين من المهاجرين . وأحد العشرة المبشرين بالجنة [1] وأحد الستة الذى عينهم ابن الخطاب للشورى قبل وفاته .

منزلته وفضله :

وكان رضى الله عنه ممن شرح الله صدورهم للإسلام على أساس ثابت ويقين كامل ولقد وقفت أمه فى سبيل إسلامه . وأعلنت مقاطعته لكى تصرفه عن دينه فما زاده ذلك إلا إيمانا وتثبيتا . ويروى المؤرخون أن أمه قالت له : يا سعد . بلغنى أنك قد صبأت [2] فوالله لا يظلنى

---

[1] هم الأربعة الخلفاء وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح .

[2] رجعت عن دين آبائك .

سقف فى الحر والبرد . وإن الطعام والشراب علىَّ حرام حتى تكفر بمحمد . وبقيت كذلك ثلاثة أيام فلم يعبأ بها ، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره بموقفه ، فأعجب الرسول بإيمانه ، وأنزل الله فى ذلك الموقف الكريم آيته الكريمة : " وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ " . سورة العنكبوت آية ٨ .

ولقد دعا له رسول الله ﷺ فقال : " اللهم استجب لسعد إذا دعاك " ، فكان رضى الله عنه لا يدعو إلا ما استجيب له . وهو الذى بنى الكوفة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ثم وليها فى عهده ووليها كذلك فى عهد عثمان . وقال عمر فيه حينما سئل عنه : " تركته فى ولايته أكرم الناس مقدرة وأقلهم قسوة وإنه لأشد الناس عند البأس وأحب قرشى إلى الناس" وأخيرا رشحه عمر رضى الله عنه للخلافة قبل وفاته وقال فى وصيته : " إن أصابت الإمرة سعدا فذاك ، وإلا فليستعن به الذى يلى الأمر" ، وهو من رواة الحديث النبوى ، وقد روى عنه كثير من الصحابة ومن التابعين .

جهاده فى سبيل الله :

كتب رضوان الله عليه صفحة مجيدة من الكفاح الدائب لنصرة الإسلام والجهاد المبرور فى سبيل الله . فهو أول من رمى بسهمه فى سبيل الله ، وأول من أراق دماء فى سبيل الله ، ولقد شهد غزوة أحد مع رسول الله ﷺ وكان يرمى بالنبل فى صدر الكفار وهو إلى جوار الرسول ، والرسول يعجب به ويشجعه ويقول : "ارم فداك أبى وأمى" .

وحينما أراد المسلمون فتح بلاد الفرس وتولى عمر بن الخطاب الخلافة رغب فى أن يقود الجيش بنفسه ، ولكن المسلمون أشاروا عليه بأن يقيم ويندب لذلك من كبار الصحابة ، فلما سمع عمر ذلك صعد المنبر وقال : (أيها الناس إنى كنت عازما على الخروج معكم وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى عن هذا الرأى وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب).. وقد استقر رأى المسلمين على تولية سعد بن أبى وقاص قيادة هذا الجيش ، ففرح عمر لهذا الاختيار ، لأنه صادف أهله ووقع فى موضعه وعلى الرغم من ثقته فى إخلاصه وإيمانه

وكفايته لما أسند إليه من أمر وقيادة فقد رسم له المنهج السليم بتلك الوصية الرائعة التى جاء فيها : (يا سعد ، لا يغرنك من الله أنه قيل : خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء : الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه) . وقد قصد "سعد" إلى بلاد الفرس ، وكان خير من ينفذ وصية أمير المؤمنين ، إذ كان خير مثال للقيادة السديدة ، الرشيدة ، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها المرجوة فى تقوية الصفوف ، وربط القلوب ، ونشر التعاون والتضامن . ولما وصل القائد الشجاع إلى تلك البلاد لم تخدعه المظاهر و لم تخفه تلك الحشود الضخمة التى أعدها الفرس للقائهم ، [1] فأرسل إليهم يقول : "نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه وهو الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء [2] ، قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم . وقد أبى الفرس إلا القتال فكانت موقعة القادسية وقد كتب الله النصر فيها للمسلمين على قلة عددهم ، قال تعالى : " كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ " . سورة البقرة آية ٢٤٩ .

وعند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح ، ووصل الخبر إلى عمر بالمدينة ، فكان يوما مشهودا فى تاريخ المسلمين ثم زحف "سعد" فى بلاد الفرس حتى استولى على عاصمتهم (المدائن) فألقى الرعب فى قلوبهم و لم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

وفاته :

وبعد هذه الحياة المليئة بالكفاح ، الحافلة بجلائل الأعمال توفى (سعد) فى السنة الخامسة والخمسين من الهجرة النبوية رضى الله عنه وجزاه الله خير الجزاء بما قدم لإعلاء كلمة الحق والدين .

---

[1] كان جيش الفرس يزيد عن ثلاثين ألفا ، بينما كان جيش المسلمين لا يزيد على ثمانية آلاف .

[2] يعنى أعطيتم الجزية .

۞ أبــو عــبــيــدة بــن الجــراح رضي الله عنه ۞

هو الصحابى الجليل عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن ضبه بن الحارث بن فهد بن مالك . وكنيته أبو عبيدة ، وقد غلبت عليه هذه الكنية حتى أصبح لا يكاد يعرف بدونـــها ، ولقبه أمين هذه الأمة ، ولقد لقبه بذلك رسول الله ﷺ فزاده هذا اللقب تشريفا وتكريما ، وقد ولد علـــى وجه التقريب قبل البعثة النبوية بست وعشرين سنة .

إســـلامـــه :

وقـــد دعاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى الإسلام فشرح الله صدره له ، وانطلق يسعى إلى رسول الله ﷺ فأعلن إسلامه ، وكان ذلك فى أول ظهور الدعوة ، فكان أبو عبيدة رضـــى الله عنه بذلك من السابقين الأولين .

جهاده فى سبيل الله :

وكان أبو عبيدة من أولئك النفر الكرام الذين شهدوا بدرا وشهد بعدها جميع الغزوات ، وهـــو شرف ومجد لم يحظ به إلا القليل من أصحاب الرسول ﷺ . ولقد امتحن أبو عبيدة فى غـــزوة بدر واختبرت عقيدته وإيمانه اختبارا قاسيا رهيبا ، فنجح فى الامتحان ، ورجحت عقيدتـــه فى الميزان ، ذلك بأن تقابل وجها لوجه أمام والده المشرك عبد الله بن الجراح ، وكان أبو عبيـــدة يتحاشى أن يقابل والده . ولكن الوالد كان يتصدى لابنه فى عنف وإصرار ، وجحود واستهتار ، وكان الصراع حينئذ عنيفا بين عقيدته الدينية وعاطفة البنوة الطبيعية . ولكن العقيدة الدينية فى نفس المؤمن الكامل تسمو على كل شىء وهى تجعل القريب المشرك غريبا والغريـــب المـــؤمن قريبا. ولقد انتصرت العقيدة والإيمان فى نفس أبى عبيدة فأقدم على قتل والده المشرك فى معركة الإسلام الخالدة ليحق الحق ويزهق الباطل وليضرب بذلك مثلا رائعا أمام القرون والأجيـــال . وفى ذلك نزلت الآية الكريمـــة وقـــال تعـــالى : " لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ " .

سورة المجادلة آية ٢٢ .

وفى غزوة أحد ثبت أبو عبيدة فى أشد حالات الحرج حيث اضطربت صفوف المسلمين بعد الهجوم على الرماة . ثم طار أبو عبيدة نحو الرسول ﷺ ووقف إلى جواره يفتديه بنفسه ولما دخلت حلقتا المغفر [1] فى وجه الرسول ﷺ نزعها بأسنانه فسقطت له ثنيتان [2] فأصيبت بالهتم وهو نقص فى غيره ، ولكنه صار فيه كمالا ، ووسام شرف يذكِّر المسلمين أبدا بموقفه العظيم من النبى الكريم . ثم يمضى أبو عبيدة فى جميع الغزوات بطلا مجاهدا فى سبيل الله ورسوله ، رافعا راية الحق والتوحيد ، حتى إذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وتولى أبو بكر الخلافة ، وبدأت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، عرف أبو بكر منزلة "أبى عبيدة" فولاه مع ثلاثة من كبار الصحابة [3] قيادة الجيوش التى سارت إلى الشام ، فجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولكنهم احتاجوا إلى مدد ومعونة ، فأمدهم بخالد بن الوليد وجعل له القيادة العامة ، فكتب الله النصر لخالد فى موقعة اليرموك ثم جاء الخليفة ابن الخطاب فأمر بعزل خالد وولى أبا عبيدة فى مكانه فكان خير خلف لخير سلف وأخذ يتوغل فى بلاد الشام فاتحا حتى سلمت له معاقلها الحصينة ، وحصونها المنيعة . وحسبنا فى هذا المجال أن نذكر ذلك الموقف الرائع الذى يمثل لنا قوة إيمان أبى عبيدة وحزمه وصرامته مع أعدائه ، مهما بلغت قوتهم وكثرتهم . فلقد تجمع الروم عند بلدة (فحل) وتعاهدوا على طرد العرب المسلمين من بلاد الشام ، مهما بذلوا من التضحيات ، وأرسلوا إلى أبى عبيدة يتوعدونه هو ومن معه بالفناء والتدمير ويقولون لهم : (اخرجوا من بلادنا التى تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب فلستم لها بأهل ، وألحقوا ببلادكم بلاد الشقاء والبؤس . فإن أنتم لم تفعلوا سرنا لكم بما لا قبل لكم به ، ثم أعطينا الله عهدا ألا ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف) . فرد عليهم فى قوة وإيمان قائلا : أما قولكم : (اخرجوا من بلادنا ، فلستم لها أهل) فلعمرى ما كنا لنخرج منها ، وقد دخلناها وورثناها منكم

---

[1] المغفر هو الخوذة التى تحفظ الرأس والوجه .

[2] الثنية إحدى الأسنان الأربع فى مقدم الفم اثنتان من فوق واثنتان من تحت .

[3] هم عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، وزيد بن أبى سفيان .

ونزعناها من أيديكم ، وإنما البلاد بلاد الله ، والعباد عباده ، وهو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويذل من يشاء) ، (وأما ما ذكرتم من بلادنا وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء فقد صدقتم وقد أبدلنا الله بها بلادكم بلاد العيش الطيب والسعر الرخيص والفواكه الكثيرة فلا تحسبونا بتاركيها ولا منصرفين عنها ، ولكن أقيموا لنا ، فوالله لا نحشمكم اتياننا ولنأتينكم إن أقمتم لنا) . وهكذا وبمثل هذه القوة كتب إليهم أبو عبيدة و لم يكن ذلك مجرد كلام بل صدقه العمل ، فلقد نهضوا لقتال الروم فهزموهم شر هزيمة ، وأذاقوهم الويل والنكال ، وفاز المسلمون بالنصر المبين ، وذلك فضل الله والعاقبة للمتقين .

منزلة أبي عبيدة وفضله :

روى أن رسول الله ﷺ قال : " لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ " وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وقيل له : استخلف يا أمير المؤمنين ؟ قال لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : " إن أبا عبيدة أمين هذه الأمة " . وكان رضى الله عنه زاهدا فى الدنيا وزينتها إلى درجة جعلت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتملكه العجب . فلقد روى أن عمر حين قدم الشام قال لأبى عبيدة : اذهب بى إلى منزلك ، قال وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علىّ [1] ، قال : فدخل منزله فلم يجد شيئا ، قال : أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبدا وصفحة وشنا (قربة) وأنت أمير . أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى سلته فآخذ كسرات فبكى عمر ، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين ، يكفيك ما بلغك المقيل . فقال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة. وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال يوما لجلسائه : " تمنوا ، فتمنوا . فقال عمر : لكنى أتمنى بيتا ممتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح " .

وفاته :

وقد ظهر الطاعون بالشام سنة ١٨ هـ وأبو عبيدة يتولى هناك مركز القيادة وفتك هذا الوباء بالألوف المؤلفة من المسلمين فحاول عمر بن الخطاب أن يستدعى أبا عبيدة وكتب له ليخرج

---

[1] أى تنظر أحوالى بنفسك وترى ما صرت إليه .

ويترك هذا الوباء ، ولكنه لم يفارق أصحابه و لم يترك جنده ، وأراد الله أن يصاب بالطاعون فاستسلم للقضاء ثم دعا من حضره من المسلمين وأوصاهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج ، ثم قال لهم : لا تلهكم الدنيا فإن امرءا لو عمَّر ألف حول (سنة) ما كان له يد من أن يصير إلى هذا الذى ترون ، والله كتب الموت على عباده ، فهم ميتون . أكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم ميعاد ، ثم أدركته منيته ، ولكل أجل كتاب .

۞ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ۞

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى ، وهو عم النبى ﷺ وأخوه من الرضاعة فقد ثبت فى الصحيحين أن ثوية مولاة أبى لهب قد أرضعتهما ، وهو قريب النبى ﷺ كذلك من جهة أمه ، إذ كانت أمه هالة بنت عم السيدة آمنة بنت وهب .

إسلامه :

وقد أسلم حمزة فى السنة السادسة من البعثة فاعتز المسلمون بإسلامه وازداد بنو هاشم وبنو المطلب قوة ودفعا للأذى عن النبى ﷺ . ومجمل قصة دخول حمزة فى الإسلام أن أبا جهل مر بمحمد ﷺ يوما عند الصفا فسبه وشتمه وأسمعه ما يكره . فأعرض عنه النبى و لم يرد عليه بكلمة ، وكان حمزة رجلا قويا ذا ولع بالصيد ، فلما رجع من صيده فى ذلك اليوم علم بما أصاب ابن أخيه من سفاهة أبى جهل فامتلأ غضبا وذهب إلى الكعبة و لم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها . وقصد أبا جهل فهجم عليه وقال : كيف تسب محمدا وأنا على دينه ؟ وضربه بقسوة وتحداه ، وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسما للشر معترفا بما وقع منه لمحمد .. ثم أعلن حمزة إسلامه ، وعاهد النبى ﷺ على النصرة والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية . وتألمت قريش وأصابها هم مقيم بإسلام حمزة ، فقد عرفوا أن رسول الله ﷺ عز وامتنع [1] فكفوا عن الإسراف فى إيذائه . وقد هاجر رضى الله عنه إلى المدينة وشهد بدرا وأبلى فيها أحسن البلاء ، كما شهد أحدا واستشهد فيها بعد أن أغمد سيفه فى صدور

[1] أى أصبح ذا قوة ومنعة .

كثير من المشركين . وكان ذلك فى السنة الثالثة من الهجرة النبوية ، وقد لقبه النبى ﷺ بـ "أسد الله" وسماه سيد الشهداء .

۞ عبد الله بن عباس رضي الله عنه ۞

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وجد خلفاء الدولة العباسية . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ذا صلة قريبة برسول الله ﷺ كثير الاتصال به ، فسمع من رسول الله ما أنزل به الوحى الأمين ، من تعاليم إسلامية شاملة ، وتشريع سمح قويم فمال قلبه إلى الإسلام ودخل فى دين الله . قال ابن عباس : كنت عند رسول الله ﷺ فقام إلى سقاء فتوضأ وشرب قائما ، قلت : والله لأفعلن كما فعل النبى ﷺ وقمت وتوضأت ، وشربت قائما ثم صففت خلفه فأشار إلى لأوازى به وأقوم عن يمينه فأبيت ، فلما قضى صلاته قال :"ما منعك ألا تكون وازيت بى ؟ " قلت يا رسول الله : أنت أجل فى عينى وأعز من أن أوازى بك ، فقال "اللهم آته الحكمة" . وكان ابن عباس "غزير العلم" حتى كان يُقال له : "حبر الأمة" [1] وترجمان القرآن لأن النبى ﷺ دعاه وهو صغير فمسح رأسه وقال : " اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ" ، ويقول ابن عباس رضي الله عنه ضمنى رسول الله ﷺ وقال " اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ " ووضع يده الشريفة على صدره فوجد عبد الله بن عباس بردها فى ظهره ، ثم قال ﷺ : " اللهم احش جوفه حكما وعلما" فلم يجد ابن عباس فى نفسه منذ ذلك الوقت حاجة إلى سؤال أحد من الناس .

عبد الله بن عباس فى المدينة :

عكف رضى الله عنه فى المدينة على رواية الحديث وحفظ القرآن الكريم ، ولما توفى رسول الله ﷺ وكان ابن عباس يناهز الحلم ، أخذ يجمع الحديث من أفواه الصحابة . فروى عن كثير منهم حتى بلغ ما رواه ١٦٧٠ (سبعين وستمائة وألف حديث) وبذلك كان من رواة الحديث . وأصبحت منزلته فى المدينة كمنزلة كبار الصحابة . وأتاه الناس من كل ناحية ينهلون من مورده ، ويبتغون العلم من مجلسه . قال بعض علماء عصره (ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده) وقال

[1] الحبر : هو العالم الكبير .

ابن مسعود : (نعم ترجمان القرآن ابن عباس) .

منـــزلته العلمية :

لما تمت البيعة لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ولى ابن عباس ولاية البصرة . فانتقـــل إليهـــا حاكما ورغم ذلك لم تشغله الشئون الإدارية لهذا الإقليم من مواصلة رسالته العلمية التى شـــغف بها منذ ترعرع فى نور الدعوة المحمدية فعقد مجالس التفسير وأخذ ينشر العلم ويفقه الناس فى أمر دينهم . وما كان لابن عباس ـــ وهو الغواص ـــ كما يلقبه الإمام على كرم الله وجهه أن تخمد جذوته الفكرية . وهو حبر الأمة وفقيهها ورحم الله عمر حيث يقول (نعم ترجمان القرآن ابـــن عباس ، فتى الكهول ، له لسان سئول وقلب عقول) كما قال أيضا : "ما سمعت فتيا أحسن من فتيا ابن عباس إلا أن يكون رسول الله ﷺ" . وقد بلغ ابن عباس فى العلم مبلغا كبيرا فتكـــاثر الناس حولـــه حتى قال بعضهم : (لقد رأيت لابن عباس مجلسا لو أن جميع قريش فخرت بـــه لكان فخرا ، يجتمع الناس عنده حتى يضيق بهم المكان ويدخل عليه من يريد أن يســـأل عـــن الحلال والحرام ، ثم من يريد أن يسأل عن العربية والغريب من الكلام . فيجيب كلا عما سأل ويزيد عليه بما يوضحه) كما قيل : (إذا رأيته قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت: أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس) . سأل بعض الناس عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى مسألة من المسائل فقال : (سل ابن عباس فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد) .

عبد الله بن عباس فى ميدان الجهاد :

لم يشأ عبد الله بن عباس أن يقتصر نشاطه على الناحية العلمية ، بل أحب ألا يحرم من شـــرف الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمته ونصر دينه . رغبة فيما أعد للمجاهدين عند الله من عظـــيم الأجر ، فاشترك فى الفتوحات الإسلامية فى شمال أفريقيا وفارس ،كمـــا اشـــترك فى غـــزوة القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية سنة ٤٨ هـــ .

تواضعه :

وكان ابن عباس رضى الله عنه مع هذا متواضعا فى غير ضعف حليما حتى ليضرب به المثـــل فى الحلم . ركب "زيد بن ثابت" يوما فأخذ ابن عباس بركابه . فقال زيد ابن ثابت : لا تفعل يا بـــن

عم رسول الله ، فقال ابن عباس : "هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا" فقبل زيد بن ثابت يده وقال : "هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا" وشتم رجل ابن عباس رضى الله عنه فقال : إنك لتشتمنى وفى ثلاث : إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأحبه ، ولعلى لا أقاضى إليه أبدا ، وإنى لأسمع بالغيث يصيب بلدا من المسلمين فأفرح به ومالى بها سائمة ولا راعية ، وإنى لآتى على آية من كتاب الله تعالى ، فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون عنها مثل ما أعلم .

وفاته سنة ٦٨ هـ :

وتوفى رضى الله عنه سنة ٦٨ هـ (ثمان وستين للهجرة) بعد أن أصيب فى بصرة عن إحدى وسبعين سنة . ولقد صدق العلماء حيث قالوا بعد سماعهم بوفاته :"مات ربانى هذه الأمة" .

۞ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ۞

هو الصحابى الجليل : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب ، من بنى هذيل ، وكان يكنى بأبى عبد الرحمن ، وهو من السابقين الأولين .

إسلامه :

يحدثنا ابن مسعود عن إسلامه فيقول : " كنت غلاما يافعا (أى ناهز الاحتلام) أرعى غنما لعقبة بن أبى معيط ، فجاء النبى ﷺ وأبو بكر وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فقالا : هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينَا ؟ فقلت : إِنِّي مُؤْتَمَنٌ وَلَسْتُ سَاقِيَكُمَا ، فقال النبى ﷺ : "هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ ؟ " ، فقلت : نعم ، فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ الضَّرْعَ وَدَعَا ، فَحَفَلَ الضَّرْعُ ، ثُمَّ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ فَاحْتَلَبَ فِيهَا ، فَشَرِبَ وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ شَرِبْتُ ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ : " اقْلِصْ " ، فَقَلَصَ . ثم يقول ابن مسعود : " فشرح الله صدرى للإسلام فكنت آتى رسول الله وأتعلم منه القرآن " .

أول من جهر بالقرآن :

وكان ابن مسعود رضى الله عنه أول من جهر بالإسلام بمكة بعد رسول الله ﷺ ، فقد اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فى مبدأ ظهور الإسلام فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن

يجهر لها به قط ، فهل من رجل يسمعهم ؟ فقال ابن مسعود : أنا ، فقالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه ، فقال "دعونى فإن الله سيمنعنى" . فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى ناديها حتى قام عند المقام فقال رافعا صوته : بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ " ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ " ، وأخذ يقرأ ، فتأملت قريش وجعلوا يقولون : ما يقول ابن مسعود ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا فجعلوا يضربونه فى وجهه وجعل يقرأ من سورة الرحمن حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف أصحابه وأثر الضرب فى وجهه فقالوا : " هذا الذى خشينا عليك " ، فقال فى إيمان واطمئنان : والله ما كان أعداء الله قط أهون علىَّ منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا ، فقالوا : حسبك ، فقد أسمعتهم ما يكرهون .

جهاده فى سبيل الله :

وقد شهد ابن مسعود جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ فكان المثل الكامل للمسلم المجاهد وهاجر الهجرتين [1] متحملا المتاعب والآلام فى سبيل عقيدته ، وهو الذى أجهز على عدو الله أبى جهل فى غزوة بدر الكبرى وقطع رأسه . وكان معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه قد ضرب أبا جهل فى هذه الغزوة ضربة أطاحت قدمه بنصف ساقه ، فمر عليه عبد الله ابن مسعود ولا يزال به رمق فوضع رجله على عنقه وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال أبو جهل : وبم أخزانى ؟ أخبرنى لمن الغلبة اليوم فقال : لله ورسوله ، يقول ابن مسعود : فقال أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعى [2] الغنم ثم حززت رأسه وجئت إلى رسول الله ﷺ وقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال رسول الله ﷺ والله الذى لا إله غيره ؟ قلت : نعم : والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى الرسول ﷺ فحمد الله .

منزلة ابن مسعود وفضله :

وكان عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه صاحب رسول الله . ويتعهد فراشه وسواكه ونعليه وطهوره ، وكان يستر الرسول ﷺ إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، وكان يلبس الرسول ﷺ نعليه

---

[1] الهجرة الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة .

[2] تصغير لراعى الغنم ، والمعنى قد وصلت إلى درجة لست أهلا لها .

ثم يمشى أمامه بالعصا حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه فأدخلهما فى ذراعيه وأعطاه العصا ، فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يقوم ألبسه نعليه ثم مشى بالعصا أمامه ، ويروى أن رسول الله ﷺ أمره أن يصعد شجرة ويأتيه بشيء منها ، فضحك أصحاب الرسول ﷺ لما رأوا من دقة ساقيه ، فقال الرسول صلوات الله عليه : " لماذا تضحكون ؟! لرجل عبد الله يوم القيامة فى الميزان أثقل من أحد " وهذا كناية عن فضله وسمو منزلته . وبلغ من حب الرسول ﷺ وتقديره له أنه قال : " لَوْ كُنْتُ مُؤَمِّرًا أَحَدًا مِنْ غَيْرِ مَشُورَةِ المسلمين لَأَمَّرْتُ عبد الله بن مسعود " .

وذكر جماعة من أصحاب على بن أبى طالب عبد الله بن مسعود ـــ كان ذلك بعد وفاته ـــ فقالوا : يا أمير المؤمنين : ما رأينا رجلا كان أحسن خلقا ولا أشد ورعا من عبد الله بن مسعود ، فقال على : ناشدتكم الله إنه لصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنى أشهدك أنى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل . وقد روى عن النبى ﷺ كثيرا من الأحاديث . وروى عنه من الصحابة (ابن عباس وابن عمر وأبو موسى) وغيرهم ، وتوفى ابن مسعود رضى الله عنه بالمدينة فى سنة ٣٢ هـ ودفن بالبقيع رضى الله عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

۞ زيد بن ثابت رضي الله عنه ۞

هو عالم الأمة وحبرها الجليل "زيد بن ثابت" بن الضحاك بن زيد الأنصارى الخزرجى وكنيته أبو سعيد .

جهاده فى سبيل الله :

وكان رضى الله عنه من المسلمين المجاهدين فى سبيل الله منذ حداثة سنه ـــ فلقد قدم النبى ﷺ إلى المدينة وكان عمره إحدى عشرة سنة ، فلما كانت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة تقدم زيد بن ثابت لينضوى تحت لواء المجاهدين ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه استصغره فرده ، وكذلك فعل به فى غزوة أحد لصغره . والمقطوع به أنه شهد غزوة الخندق وعمل مع المسلمين ، وكان ينقل التراب معهم ، وقد أعجب به رسول الله ﷺ وأثنى عليه فقال : " إنه نعم الغلام" . وفى غزوة تبوك كانت راية بنى مالك بن النجار مع عمارة بن حزم فأخذها رسول الله ﷺ منه ودفعها إلى زيد بن ثابت فقال عمارة : يا رسول الله بلغك عنى شيء ؟ ، قال : " لا ،

ولكن القرآن مقدم وزيد أكثر أخذا للقرآن منك" .

وقد شهد كثيرا من الغزوات مع الرسول ﷺ وأبلى فى سبيل الله أحسن البلاء .

منـــزلتـــه وفضله :

كان زيد بن ثابت رضى الله عنه من الراسخين فى العلم ، وكان أعلم أصحاب الرســـول ﷺ بالفرائض حتى قال الرسول لأصحابه : " أفرضكم زيد " ، وقد روى عنه جماعة من الصـــحابة منهم أبو هريرة ، وأبو سعيد ، وابن عمر ، وروى عنه من التابعين : سعيد بن المسيب وولـــداه وسليمان بن يسار وآخرون . وروى البخارى أن زيد بن ثابت قال : أتى بى إلى النبى ﷺ حين قدم المدينة . فقيل : هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرآت عليه فأعجبه ذلك ، فقال : تعلم كتابة اليهود فإنى لا آمنهم على كتابى ، ففعلت ، فما مضى لى نصف شهر حـــتى حذقتها (أى أتقنتها) ، فكنت أكتب إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له وكان يكتب الوحى للنبى ﷺ فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى كتب لأبى بكر ، ثم كتب من بعده لعمر رضـــى الله عنـــهم أجمعين . وكان يرجع إليه فى القضاء والفتيا ، وكثير من أصحاب الرسول بالمدينة ومنهم عبد الله بن عمر يفتون بمذهب زيد بن ثابت ويأخذون عنه ما لم يكونوا قد حفظوا من رســـول الله ﷺ قولا ، وكان عمر فى خلافته إذا خرج للحج يستخلفه على المدينة . وفى ذلك كـــل التقـــدير والإكبار وكذلك كان يفعل عثمان بعد أن تولى الخلافة . وكان لزيد بن ثابت فى جمع القرآن يد طولى وأثر محمود فلقد عهد إليه بهذه المهمة الكبيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه لأنه كان موضع ثقته ، ولأنه خير من ينهض للقيام بهذا الواجب وحمل تلك الأمانـــة ، وفى ذلك يقول زيد بن ثابت كما جاء فى البخارى : أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بعد موقعـــة اليمامـــة [1] ، وكان عِنْدَهُ عُمَرُ فَقَالَ لى : إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ : إِنَّ الْقَتْلَ قَد اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ ، وَإِنِّـــي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ أَنْ تَجْمَعُوهُ ، فشرح الله صدرى لذلك ورأيت الذى رأى عمر ، ثم قال لى أَبُو بَكْرٍ : إِنَّكَ رَجُـــلٌ شَـــابٌّ عَاقِـــلٌ وَلاَ

[1] كانت فى حروب الردة وقد قتل فيها من المسلمين مائتان وألف ، منهم تسعة وثلاثـــون مـــن كبـــار الصحابة ومن حفاظ القرآن .

نَتَّهِمُكَ ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ ، قلتُ كَيْفَ تَفْعَلاَنِ [1] شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ ؟ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ . فلم أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فقمتُ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالْأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ [2] وَصُدُورِالرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ [3] " لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ". فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية فى سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، وهى : " مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ " سورة الأحزاب آية ٢٣ .

فألحقتها فى سورتها ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر . وكان زيد يتحرى الدقة الكاملة فيما يثبته من الآيات التى يجمعها من صدور الرجال ومن الرقاع والعظام وجريد النخل . ويدلنا على ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : " وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ " سورة التوبة آية ١٠٠ .

برفع كلمة "الأنصار" ومن غير واو العطف بينها وبين "الذين" فقال له زيد بن ثابت : "والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان" واختلفا . فدعا عمر أبى بن كعب وسأله عن ذلك فأقر

---

[1] الخطَاب لأبى بكر وعمر .

[2] العُسب جمع عسيب وهو ما يثبت عليه الخوص من جريد النخل .

[3] ما عدا زيدا فإنه كان يحفظ هاتين الآيتين .

قراءة زيد . وهذا الخلاف على حرف الواو فى الآية السابقة ، يتجلى منه مدى الدقة والحيطة التى كان يلتزم بها زيد بن ثابت حتى تطمئن نفسه إلى الحق ويؤدى الأمانة كاملة يصاحبه فى ذلك توفيق الله الذى يقول : " إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ " . سورة الحجر آية ٩ .

وفاته :

وقد توفى زيد بن ثابت رضى الله عنه سنة ٤٥ هـ . ولما توفى قال أبو هريرة : اليوم مات حبر هذه الأمة وعسى أن يجعل الله من ابن عباس عنه خلفا .

۞ عمرو بن العاص رضي الله عنه ۞

هو عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى ، ولد سنة ٥٧٥ م سنة ٤٧ قبل الهجرة نشأ فى مكة فى بيت أبيه الرفيع وقضى شبابه مع أبناء سادات قريش ـ وعلى الرغم من الأمية المنتشرة فى بلاد العرب ـ كان كاتبا ممتازا . وقد اشتهر بالفصاحة والبلاغة كما كان ميالا للرياسة والزعامة . وقد سافر فى شبابه إلى الشام ومصر والحبشة تاجرا ، فدرس أحوال تلك الأمم واكتسب من ذلك خبرة قوية وتجارب نافعة ، وكان من المعتزين بمكانتهم بين سادات العرب ، ذا مطامع واسعة . معتزا بدهائه وذكائه وإكبار صناديد العرب له . الأمر الذى جعله يعارض دعوة الرسول ﷺ ويشتد فى إيذاء المسلمين وحروبهم ، والدخول فى المعارك التى خاضتها قريش ضد المسلمين وكان ذلك من أهم العوامل التى جعلته يدخل الإسلام متأخرا .

يحدثنا عمرو عن إسلامه فيقول : خرجت من مكة قاصدا المدينة فلقيت فى الطريق "خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة" ولقد فكرا فيما فكرت فيه وانتهى رأيهما إلى الدخول فى الإسلام . ولما وصلنا المدينة دخلنا على رسول الله ﷺ ، وتقدم خالد وأعلن إسلامه . ثم عثمان بن طلحة ثم تقدمت فبايعته على أن يدعو الله أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى فقال الرسول ﷺ : " إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله" . أجل . أعلن عمرو إسلامه بعد أن آمن قلبه وعزم على أن يهز سيفه فى سبيل الله كما هزه قبل ذلك فى سبيل الشيطان . وقد فرح المسلمون بإسلام عمرو ، ولكفاءته

أسند إليه رسول الله ﷺ سرية [١] من السرايا التى انبعثت فى شبه الجزيرة ، وبعثه إلى عُمـــان [٢] لدعوة أهلها إلى الإسلام .

جهاد عمرو فى سبيل الله :

١- **حروب الردة** : كان بعض العرب قد أسلم ظاهرا ، فلما علموا بموت الرسول ارتدوا عن دين الله فحشد أبو بكر الجيوش لقتالهم ، وكان عمرو على لواء من ألوية المجاهدين ، فأبلى فى ذلك أحسن البلاء وكان له فى القضاء على تلك الفتنة أثر كريم وفضل كبير .

٢- **عمرو فى الشام** : ولما أرسل أبو بكر الجيوش إلى الشام ولى عمروا قيادة الجـــيش الثـــانى وأخذت جيوش المسلمين تتنقل من نصر إلى نصر ولواء عمرو بين الألوية سلاح نافذ وقوة مدبرة حتى فتحوا دمشق ، ثم سار عمرو بجيوشه إلى فلسطين للقضاء على قوة الروم الـــتى كانت تحت قيادة كبير من كبار قاداتـــهم ودهاتـــهم وهو "أرطبون" فأرسل إليه الخليفـــة "عمر" المدد وقال لأصحابه : "رمينا أرطبون الروم بأرطبون العـــرب" والتقـــى الجيشـــان وأخذت السيوف تحصد رءوس الرومان حتى كتب الله النصر للمسلمين .

عمرو فى مصر :

ثم أخذ عمرو يحدث الخليفة عن مصر وعن مركزها بالنسبة لسلامة الفتوحات الإســـلامية فى الشام وأنـــهما متممان لبعضهما ـــ كما أخذ يشرح له مستوى الحكم الرومانى فى مصـــر . فقال الخليفة : اذهب على بركة الله ، وسوف أستخير الله وأستشير أصحابى . ثم أرسل لـــك رسالة فإذا وصلتك قبل أن تدخل أرض مصر فارجع وإلا فامض على بركة الله . وسار عمرو إلى مصر ، وقبل أن يدخلها جاء رسول الخليفة فأحس به يحمل أمر العدول عن السير فأخـــذ يستدرج الرسول حتى دخل أرض مصر . ثم قرأ الكتاب على من معه ، وقال : " إننـــا الآن فى الوصول إلى هدفه " ، وأخرجت السيوف من أغمادها ، وانـــهارت حصـــون الـــروم أمـــام

---

[١] على بعد عشرة أميال من المدينة كانت قبائل قضاعة تنتشر حول آبار يقال لها ذات السلاسل فسميت ذات السلاسل .

[٢] فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية.

المسلمين . وانطلقت التكبيرات تهز الأرجاء ، وعمرو أمامهم ليثا جسورا يقوى العزائم ويبشر بالنصر القريب حتى انقطع آخر خيط للروم يربطهم بمصر ، ودانت البلاد للعرب ، وتم الجلاء .

عمرو فى ميدان الإصلاح :

كان عمرو دائم العمل ، ينفخ فى مصر روحه القوية بعزم ونشاط فبنى مدينة الفسطاط ، وبنى مسجدا اسماه مسجد الراية ، ومقبرة للمسلمين وحمامات ، وحفر خليجا يصل بين النيل والبحر الأحمر سمى بخليج أمير المؤمنين ، وأصلح الجسور والترع ، وبنى مقياسا للنيل ، يحدد الزيادة والنقص حتى تجبى الضرائب من البلاد ، أشرك معه فى سياسة البلاد ، العارفين بها من أهلها ، ليستنير بآراءهم ، ونظم الضرائب . وأطلق الحرية الدينية مما ساعد على نشر الرخاء والأمن والسلام . وقضى عمرو حياته موفور النشاط حتى أحس بالمرض فأوى إلى فراشه وأخذ يستعرض صحائف أعماله ويقول : " اللهم إنك أمرتنى فلم أأتمر ، وزجرتنى لم أزدجر ، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهلٌ للعفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداى ، اللهم لا قوى فانتصر ، ولا برىء فاعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر لا إله إلا أنت" ، ولم يزل يرددها حتى خفت صوته . وصعدت روحه إلى خالقها ، ودفن بجوار "المقطم" صبيحة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة .

۞ خالد بن الوليد رضي الله عنه ۞

هو أبو سلمان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، يجتمع مع رسول الله ﷺ فى الجد السادس ، وهو "مرة بن كعب" [1] . ولد فى مكة قبل البعثة النبوية بسبع وعشرين سنة ، فقضى الصدر الأول من شبابه دائرا فى فلك الشرك والطغيان . غارقا فى عبادة الأوثان وكان فى جاهليته شديدا على المسلمين يتربص بهم الدوائر ويلتمس الفرص ليكيد لهم وينال منهم . شاء فضل الله ألا يظل خالد يتخبط فى هذا الظلام فأقاله من عثر وهداه إلى الحق ، وأعزه بالإسلام ، وكان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة وقبيل الفتح الأعظم للبلد الحرام . ويروى لنا خالد قصة إسلامه فيقول : " لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الإسلام وحضر بى رشدى فقلت : شهدت هذه

[1] مرة بن كعب هو الجد السادس للرسول ﷺ والجد السادس لخالد بن الوليد وكذلك الجد السادس لأبى بكر الصديق .

المواطن كلها على "محمد" فليس فى موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى فى نفسى أن محمدا سيظهر [1] وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى عمرة القضية [2] فطلبنى فلم يجدنى فكتب لى كتابا فإذا فيه :

"بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنى أعجب من ذهابك رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك وقد سألنى رسول الله ﷺ فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتى الله به ، فأدرك يا أخى ما فاتك من مواطن صالحة" . قال : فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام وسرنى سؤال رسول الله ﷺ عنى ، ورأيت فى النوم كأنى كنت فى بلاد ضيقة مجدبة ، ثم خرجت إلى بلاد خضراء واسعة [3] ، حتى إذا دخلت المدينة لبست صالح ثيابى ، ثم قصدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى . فقال : أسرع ، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك ، فسر بقدومك . فأسرعت المشى فأطلعت عليه ، فما زال يبتسم إلىَّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد عليه السلام بوجه طلق ، فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال ﷺ : "الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ـــ رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير" قلت : يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا الحق فادع الله أن يغفر لى . فقال رسول الله ﷺ : "الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله" ، قلت : يا رسول الله على ذلك . قال : "اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك" . وهكذا كان إسلام خالد بعد تفكير واطمئنان فى جو يسوده الإخلاص ويشرق فيه الإيمان .

جهاده فى سبيل الله :

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلا فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله ﷺ : من هذا ؟ فأقول : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، قال : نعم عبد الله ، هذا سيف من سيوف الله . وصدق الرسول الكريم ﷺ فقد كان خالد سيفا صارما سلطه الله على

---

[1] أى سيعلو شأنه وينتصر على أعدائه .

[2] هى العمرة التى أداها المسلمون بعد صلح الحديبية بعام أى فى السنة السابعة من الهجرة .

[3] هى رؤيا صادقة فلقد خرج من ضيق الكفر إلى سعة الإسلام ومن جدب الباطل إلى خضرة الحق وازدهاره .

الكفار والمشركين ، ورمى به أعداء الحق وأنصار الضلال فأذاقهم الهوان والنكال . ولقد أسلم وهو فى السادسة و الأربعين ، ومات وهو فى الستين فكأنه قد قضى فى الإسلام أربعة عشر عاما فحسب ، ولكنها على قصرها كانت عمرا طويلا إذ كانت حافلة بالجهاد ، مليئة بالتضحية والكفاح ، مكللة بالفوز والنصر .

غزوة مؤتة :

فى هذه الغزوة ثبتت بطولته النادرة إذ استطاع أن ينقذ المسلمين ـــ وكانوا ثلاثة آلاف فحسب ـــ من عدوهم الذى بلغت جيوشه مائتى ألف ، وكان انقاذه للمسلمين من الفناء بعد قتل قوادهم الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، واحدا بعد واحد ، عملا يقوم مقام النصر أو يزيد . ولقد قاتل رضى الله عنه فى هذا اليوم قتالا مريرا حتى قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف . فيا لروعة التضحية والإيمان . بعد أن أتم الله النعمة على المسلمين بفتح مكة كان لخالد بن الوليد موقف جليل ، فقد أرسله الرسول ﷺ إلى بطن نخلة [1] لهدم العزى وهى أعظم الأصنام عند قريش . وكانوا يقدمون لها الذبائح والقرابين ، فهدمها خالد وقتل سادتها متحديا أئمة الكفر والضلال ساخرا من عقائدهم الكاذبة وقال مفتخرا بفضل الله :

يا عز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

خالد فى حروب الردة :

ولما أقبلت الفتن كقطع الليل بعد وفاة رسول الله ﷺ وارتد كثير من المسلمين عن دينهم ، وبدأ أبو بكر يكافح هذا الشر والبلاء كان لخالد بن الوليد فى هذا المجال أيام مشهودة ، ومواقف محمودة ، بل كان له الأثر الأكبر فى القضاء على هذه الفتن ، إذ أعمل فى أعداء الله سيف البطش والانتقام ، فحرقهم بالنار ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، وأذاقهم الويل والنكال ، حتى صفت سماء الجزيرة العربية وأشرق فيها نور الإسلام من جديد .

---

[1] مكان بالقرب من مكة .

خالد فى حروب العراق والشام :

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى أعماله الحربية فى العراق والشام وما كان له فيها من بطولة وإقدام ، وعبقرية حربية فائقة كانت تغنى عن العدة والعديد وتضمن له النصر من أقرب طريق .

وفاته :

وقد توفى رضوان الله عليه سنة ٢١ هـ ، ودفن بمدينة حمص ، وقد فاتته نعمة الاستشهاد فى سبيل الله فمات على فراشه ميتة طبيعية ، وهو الذى كان يسعى إلى الموت ويلح فى طلبه ابتغاء مرضاة الله ، وجهادا فى سبيله ، ولكن ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، وقد قال قبيل وفاته : " لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء" . ولكن إذا ما كان خالد قد فاتته الشهادة ، فقد آتاه الله الحسنى وزيادة فسلام الله عليه فى سجل الخالدين ، وسلام عليه فى الأبرار والصديقين .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك مِن خَيرِ ما سأَلَكَ مِنْهُ نبيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم ، وأَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما اسْتَعاذَ مِنْهُ نَبيُّكَ مُحمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم ، وَأَنْتَ المُسْتَعَانُ ، وعليْكَ البلاغُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ،،

وصف المصطفى صلى الله عليه وسلم

أولا : وصْفُ أُمِّ معْبَد للنَّبِيِّ ﷺ

فى طريق هجرة النَّبِى ﷺ من مكة إلى المدينة مَرَّ بخيمتى أُمِّ معْبَد الخُزَاعِيَّة ـــ وكانت امرأة بَـــرْزَةً جَلْدَة [١] ـــ تَحتْبِى [٢] بفناء الخيمة ، ثم تُطْعِمُ وتَسْقِى مَنْ مَرَّ بـــها ، فسألها هل عندها شئ .. فقالت : و"اللهِ" لو كان عِنْدَنا شئٌ ما أعوزكم القِرَى [٣] والشاءُ عَازِبٌ [٤] وكانت سَنَةً شَهْبَاءَ [٥]. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة [٦] فقال : " ما هذه الشَّاةُ يَا أُمَّ معْبَـــد ؟ " ، قالت : شَاةٌ خَلَّفَهَا الجَهْدُ [٧] عَن الغنَم ، فقال : " هَلْ بـــها مِنْ لَبَنٍ ؟ " .. قالت : هى أجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ .. فقال : " أَتَأْذَنِينَ لِى أَنْ أَحْلِبَهَا ؟ " ، قالت : نَعَمْ بِأَبِى وَأُمِّى إِنْ رَأَيْتَ بِهَـــا حَلْبًـــا فَاحْلِبْهَا .. ، فَمَسَحَ ﷺ بِيَده ضَرْعَها وسَمَّى "اللهِ" ودَعَا فتفاجَّت [٨] عَلَيْه وَدرَّتْ .. فَدَعَا بِإِنَـــاءٍ لَهَا يَرْبِضُ الرَّهْطَ [٩] ، فَحَلَبَ فِيه حَتَّى عَلَتْهُ الرَّغْوَةُ ، فَسَقَاهَا ، فَشَرِبَتْ حَتَّى رَوِيَتْ ، وسَـــقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوُوا ، ثُمَّ شَرِبَ وحَلَبَ فِيه ثَانِيًا حَتَّى مَلأ الإِنَاءَ ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا .. فَارْتَحَلُوا .. فَقَلَّمَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أبو معْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يتَسَاوَكْنَ هُزالاً [١٠] .. فَلَمَّا رَأَى اللَّبَنَ عَجِبَ ، فقال : مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا والشَّاةُ عَازِبٌ ، ولاَ حَلُوبَةَ فِى الْبَيْتِ ؟ ، فقالت : لا واللهِ إلاَّ أَنَّه مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِه كَيْت وكَيْت ، ومِنْ حَالِه كذا وكذا .. قال : و"اللهِ" إنى لأَرَاهُ صَاحِبَ قُرَيْشٍ الذى تَطْلُبُه ..

صِفِيه لى يَا أُمَّ معْبَدٍ ، قالت :

---

[١] قَوِيَّة شديدة . [٢] تجلس . [٣] ما يُقدَّم للضيف .

[٤] لم يطرقْها ذَكَـــرٌ . [٥] شديدة القَحْط . [٦] جانبها . [٧] التعب والجوع .

[٨] اندفع اللبن من ضرعها. [٩] يكفى الجماعة من الناس . [١٠] تلتفُّ أرجلها من الضَّعف.

ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ [١] ، أَبْلَجُ الْوَجْهِ [٢] ، حَسَنُ الْخَلْقِ ، لَمْ تُعِبْهُ نَجْلَةٌ [٣] ، وَلَمْ تُزْرِهِ صَعْلَةٌ [٤] ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ [٥] ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ [٦] ، وَفِي أَشْعَارِهِ وَطَفٌ [٧] ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ [٨]، وَفِي عُنُقِهِ سَطَحٌ [٩] ، أَحْوَرُ [١٠] ، أَكْحَلُ [١١] ، أَزَجُّ [١٢] ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، إِذَا صَمَتَ عَلاَهُ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلاَهُ الْبَهَاءُ [١٣] ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلاَهُ مِنْ قَرِيبٍ ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ [١٤] ، فَصْلٌ [١٥] ، لاَ نَزِرٌ [١٦] ، وَلاَ هَذَرٌ [١٧]، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ نُظِمْنَ [١٨] يَتَحَدَّرْنَ ، رَبْعَةٌ [١٩] ، لاَ تَقْحَمُهُ [٢٠] عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ ، وَلاَ تَشْنَؤُهُ [٢١] مِنْ طُولٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاَثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، لَهُ رُفَقَاءُ يَحفُّونَ [٢٢] بِهِ ، إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ [٢٣]، مَحْفُودٌ [٢٤] مَحْشُودٌ [٢٥] لاَ عَابِسٌ [٢٦] وَلاَ مُفَنَّدٌ [٢٧] . [٢٨]

---

(١) نظافة المظهر .
(٢) مُنير .
(٣) طول شقِّ العين .
(٤) صغر الرأس بالنسبة للجسم .
(٥) جميل وقسمات وجهه متناسقة متساوية .
(٦) إنسان عينه شديد السَّواد .
(٧) شعره كثيف .
(٨) جمال ووضوح.
(٩) استواء .
(١٠) شديد سواد إنسان العين مع شدة بياضها .
(١١) جُفُون العيون مكحُولة بالخِلْقَة.
(١٢) الحواجب مُقَوَّسَة .
(١٣) الرَّونق .
(١٤) حلو الأسلوب .
(١٥) كلامه ما قَلَّ ودلَّ .
(١٦) تافه .
(١٧) هَذَيان .
(١٨) كعِقْدٍ منظُوم ليس بسُرْعَة ولا بطء أى على درجة واحدة.
(١٩) بين الطويل والقصير معتدل القوام .
(٢٠) لا تتجاوزه عَيْنٌ .
(٢١) لا ترتفع العين للنظر إليه من طوله .
(٢٢) يحيطون به .
(٢٣) أسرعوا إلى تلبية كلامه وأوامره .
(٢٤) تحسٌّ بعظمته وهيبته .
(٢٥) تحْتَشِد له الناس .
(٢٦) وجهه بَشُوشٌ .
(٢٧) لا يُخطأ كلامه .
(٢٨) رواه ابن القيِّم فى : " زاد المعاد فى هَدْى خَير العِبَاد " .

ثانيا : وصف هند بن أبي هالة للنبى ﷺ

هذا ويقول الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رضى الله عنهما : سألت هِنْدَ بنَ أَبِى هَالَة ـــ وكان وصَّافا ـــ عن حِلْيَة [١] رسول الله ﷺ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئا أتعلق به فقال :

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فَخْمًا [٢] مُفَخَّمًا [٣] يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، أَطْوَلَ مِنَ الْمَرْبُوعِ [٤] وَأَقْصَرَ مِنَ الْمُشَذَّبِ [٥]، عَظِيمِ الهَامَةِ [٦]، رَجِلَ [٧] الشَّـــعر ، إِذَا انْفَرَقَتْ عَقِيصَتُهُ [٨] فَرَقَ ، وإِلاَّ فَلاَ ، يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إِذَا هُوَ وَفَّرَهُ [٩] ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ [١٠] ، وَاسِعَ الْجَبِينِ [١١] ، أَزَجَّ [١٢] الْحَوَاجِبِ ، سَوَابِغَ [١٣] فِى غَيْـــرِ قَرَنٍ [١٤] ، بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يُدِرُّهُ [١٥] الغَضَبُ ، أَقْنَى العِرْنِينِ [١٦] ، لَهُ نُورٌ يعْلُـــوهُ ، يَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ [١٧] ، كَثَّ اللِّحْـــيَةِ [١٨] ، سَهْلَ الخَدَّيْنِ [١٩] ، ضَـــلِيعَ الفَمِ [٢٠] ، أَشْنَبَ [٢١] ، مُفَلَّجَ [٢٢] الأَسْنَانِ ، دَقِيقَ الْمَسْرُبَةِ [٢٣] ، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ [٢٤] ، فِى صَفَاءِ الفِضَّةِ ، مُعْتَدِلَ الْخَلْقِ [٢٥] ، بَادِنًا [٢٦] مُتَمَاسِكًا ، سَـــوَاءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ [٢٧] ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَـــيْنِ [٢٨] ، عَـــرِيضَ الصَّـــدْرِ ، ضَـــخْمَ

---

[١] شكل .
[٢] عظيم القدر .
[٣] مُعَظَّمًا عند الناس .
[٤] متوسِّط الطول .
[٥] الطويل البائن .
[٦] الرأس .
[٧] مُمَوَّج .
[٨] مُقَدَّم شعر الرأس .
[٩] أطاله .
[١٠] أبيض مُشَرَّب بِحُمْرة .
[١١] المسافة من العين إلى الأذن .
[١٢] مُستوِيَة بالخِلْقَة.
[١٣] كوامل .
[١٤] اتِّصال .
[١٥] يُظْهره .
[١٦] طول الأنف ودقَّة أرنبته وحدب فى وسطه .
[١٧] ارتفاع أرنبة الأنف .
[١٨] غزير شعر الدقن .
[١٩] مستويان فى غير ارتفاع .
[٢٠] مُرَبَّع .
[٢١] رقيق الأسنان .
[٢٢] غير مُلْتَصِقَة .
[٢٣] الشعر بين العُنُق والسُرَّة.
[٢٤] مستو كعنق عروسة من عاج.
[٢٥] التناسب بين الأعضاء .
[٢٦] المُمْتَلئ بغير ترهُّل .
[٢٧] مستويان لا يبرز أحدهما عن الآخر .
[٢٨] الكتْفين من الخلْف .

الْكَرَادِيسِ [٢٩]، أَنْورَ الْمُتَجَرِّدِ [٣٠]، مَوصُولَ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ [٣١] والسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِى كَالْخَطِّ ، عَارِىَ الثَّدْيَيْنِ والْبَطْنِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ ، أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ وَالْمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِى الصَّدْرِ ، طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ [٣٢] ، رَحْبَ الرَّاحَةِ [٣٣] ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ [٣٤] ، سَائِلَ الأَطْرَافِ [٣٥] ، مَسِيحَ القَدَمَيْنِ [٣٦] ، يَنْبُو [٣٧] عَنْهُمَا الْمَاءُ ، إِذَا زَالَ زَالَ تَقَلُّعًا [٣٨] ، ويَخْطُو تَكَفُّؤًا [٣٩] ، وَيَمْشِى هَوْنًا [٤٠] ، ذَرِيعَ الْمَشْيَةِ [٤١] ، إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ [٤٢] ، وإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا [٤٣] ، خَافِضَ الطَّرْفِ [٤٤] ، نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، جُلُّ [٤٥] نَظَرِهِ الْمُلاَحَظَةُ [٤٦] ، يَسُوقُ أَصْحَابَهُ [٤٧] ، وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلاَمِ . [٤٨]

---

[٢٩] مجتمع العظام كالرُّكْبَة مثلا .
[٣٠] المواضع التى خلت من الشعر .
[٣١] النُّقْرة فى أسفل العُنُق .
[٣٢] عظام الذراعين .
[٣٣] واسع الكف .
[٣٤] كسا اللحم عظامها فهى لَيِّنَة .
[٣٥] رشيق الأصابع .
[٣٦] أملسهما .
[٣٧] ينحدر .
[٣٨] لا يَجُرُّ قدميه على الأرض .
[٣٩] الميل للأمام .
[٤٠] هَيِّنا برفق ولين .
[٤١] طول الخطوة .
[٤٢] كأنه ينزل من مكان مرتفع .
[٤٣] يلتفت بصدره مع رأسه .
[٤٤] غاضٌ بصره .
[٤٥] مُعْظَم .
[٤٦] النظر بطرف العين دون اجتراء .
[٤٧] يمشى خلفهم .
[٤٨] جمع الفوائد (٨٤٢٣/٥١) والترمذى فى الشمائل ب : ما جاء فى خلقه ﷺ ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى .